ما قبل وفاة ملك

قصص

د. محمد نجيب عبد الله

◆ Author : Dr. Mohamed Naguib Abdalla
◆ Title : Ma Qabl Wafat Malek
◆ First Edition : 2005
◆ Cover Font, Illustration
◆ And Drawings by : Hassanein
◆ Cover Design by : Afaq

◆ المؤلف : د. محمد نجيب عبد الله
◆ العنوان : ما قبـــــل وفاة ملك
◆ الطبعة الأولى : ٢٠٠٥
◆ خطـوط ولـوحـة الغـلاف
◆ والرسوم الداخلية : حسانين
◆ تصميم الغـــلاف : آفــــاق



للنشر والتوزيع

رقم الإيداع ٢٠٠٥/٣٠٦٩
الترقيم الدولي ISBN
977-6148-06-9

٧٥ ش القصر العيني - أمام دار الحكمة - القاهرة - مصر تليفاكس : ٣٨١١-٧٩٥-٢٠٢+

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR - ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO - EGYPT
Tel.fax : +202-795-3811 E-mail:afaqbooks@yahoo.com

الفاصل بين أطياف الحلم

ومرارات الواقع

خيطٌ رفيعٌ واهٍ

من دُخَانٍ

أو سَرَابٍ

أو اللاشيء على الإطلاق

الراقصون

اختر أنت شارعاً.. مزدحماً..

جماعة من النمل.. هل هي الصورة المناسبة لك لتدل على الازدحام..

سوق القرية.. يوم عَرَفة.. أي صورة تقرّب المعنى لذهنك المكدود..

حسناً.. أنت الآن داخل هذا الزحام.. داخل أتوبيس مثلاً.. أو ميني باص.. أيهما أقرب وأحب إلى نفسك المضطربة المُنهكة بأعباء الحياة..؟

هل اخترت؟

الجو شاق.. هل يمكنك تخيل ذلك؟

حسناً إنه يعني أنك في هذا الشارع المزدحم داخل الزحام في أتوبيس مثلاً.. حيث يتنفس الجميع هواءك.. ويشاركونك الحيّز وأحياناً التفكير.. حيث

الوقـــت نهـــار والفصـــل صـــيف وســـير الطـــريق شـــبه مـــتوقف.. بحيـــث يغـــدو اســـتخدام القدميـــن للسير أوفر وقـــتاً ومجهـــوداً وضـــغطاً عصـــبيًّا.. إلا أنـــك لا تفعل.. ربمـــا لأنـــه لـــم تواتـــك بعد الشجاعة الأدبية الكافية.. أو لاعـــتقاد خاطـــئ أن الكـــرب ســـيُفرج وأن الأتوبيس الذي تســـتقله – فجـــأة ودونمـــا ســـابق إنـــذار – سينطلق كما الـــرهوان.. ولـــربما لأنـــك لا تســـتطيع تخليص نفسك من الوضـــع الـــذي وصـــلتَ إلـــيه حيـــث يحتضـــنك أحدهم ويرتكـــن علـــيك آخـــر وتســـتخدمك الأخـــرى مســـنداً لحقيبتها..

* * *

أنظر لساعتي.. تأكدت أن الوقت يمر..

أخـــذت أزفـــر فـــي ضـــيق.. نظر إليّ جاري ــ حاملاً الحقيبة الــ (سامسونايت) ــ مرتدياً البذلة الكاملة..

الـــبذلة لونهـــا كحلـــي والكرافتة لونها أحمر مزركش.. يضمخ نفسه بعطر ربما كان غالياً.. لا أدري..

نظـــرت له شـــذراً بـــلا مـــبرر.. كأنـــي أتهمه بالتسبب فيما نحن فيه من تعطل..

الشـــارع المـــزدحم مـــتوقف تمامـــاً.. يقولون في بلدنا دوماً.. إذا ما تعطل المرور فإن ذلك يعني تشريفة..!

أحسســـت بوخـــز فـــي فخذي.. ورائحة زفرة.. نظرت لأســـفل فـــي حـــركة بهلوانـــية.. وجدت كيس سمك مثبّت في لحمي.. بخخت في وجه حامله:

ــ ممكـــن تحاســـب الكـــيس لـــو ســـمحت.. كيســـك بيشوّك..

ثم أردفتُ كالإعصار: وكمان زِفِر..

تـــورّد وجـــه حـــامل الكـــيس (وهو يرتدي جلابية ذات لـــون كـــالح) خجـــلاً.. ورفـــع الكـــيس قليلاً.. فقلّ الوخز وازدادت الرائحة..

ــ أوووف..

صـــرخة أطلقـــتْها فـــتاة بجوارنـــا.. تضـــع الأحمـــر والأخضـــر.. شـــعرها مصـــبوغ بالأصـــفر.. الحلـــي الصـــناعيـــة تشخشـــخ وتشـــخلل وتخشـــخش وتكلكس ــ وكـــل الأفعـــال الغريـــبة الأخرى ــ لدى أقل حركة أو لَفْـــتة.. رائحـــة عطـــرها الـــنفّاذة تدغـــدغ أنفي.. أريد أن

أراهــا جــيداً إلا أن وضــعي لا يســمح فأكتفي بخيالاتي لرسم ما خفي عني لسبب لا أملك التحكّم فيه..

تجلــس أمامــي ســيدة سوداء.. لا أقصد لون بشرتها.. ولكنــي أعنــي انطباعــي عــنها.. فهي ترتدي الأسود.. حزيــنة.. تضــع الكحــل الأســود الــذي سيّحته الدموع فصــبغت وجنتــيها أيضــاً بــنفس اللــون السائد.. انقبض قلبــي لــدى مــرآها.. فأشحتُ بوجهي عنها إلى الخارج.. مراقباً للسيارات حيث رأيــ....

ــ يا ميلة بختك يا (سعاد)...

(تلطم السيدة البدينة على خديّها)

تستأنف المناحة:

ــ يا اللّي ما لكيش حظ في جوزك يا (سعاد)...

للمــرة الأولــى يلفــت نظــري زوجها الضئيل الجالس بجوارهــا محشــوراً بأطــنان مــن الشحم في مكانه جهة الشباك المغلق.. الضيق يبدوعلى وجهه فيقول:

ــ مــا تســكتي بقــى يــا ولية.. إنتِ دايماً فضحانا كده في كل حتّــه...

تتباكى وتواصل اللطم والنهنهة:

ـ دا انتَ اللي فاضحني.. إنتَ اللّي مجرّسني...

ثم رقعت بالصوت:

ـ يالــهوي...

امــرأة تقــف بجوارهــا تــرتدي جلابية شعبية تطبطب عليها وتقول:

ـ معلــش يــا أختــي.. مــا تعملــيش في نفسك كده.. عيــب يــا أختــي.. إمســكي نفسِــك وفــي البيــت إبقي اتخانقي معاه زي ما انتِ عايزة..

الكمساري يزعق:

ـ مــا تتلمّــي بقــى يــا ولــية واحترمي الراجل اللّي معاكي...

تصرخ:

ـ راجل ؟!! وده راجل ده..

ينهرها زوجها قائلاً:

ـ اخرسي يا (سعاد).. وإلا والله العظيم ها... إنتِ عارفة...

(سعاد) تبكي أو تتباكى:

ـ يعني هاتعمل إيه.. لو كنت بتعمل كنت عملتْ من زمان.. هوّه انت بتعمل حاجة في حياتك أبداً...

يصرخ: - (سعاااااااااد) !!

لا أعود أسمعهم.. فقد فقدوا اهتمامي.. على مقربة ذلك الفتى ينظر لصاحبته في وَلَه.. عيونه تصرخ بالعشقِ.. تصرّح به وتقسم.. هي تطرق في الأرض خجلاً.. أحس أن مكانهما هنا غيرِ مناسب.. ما الذي دعاكما ـ أي عصافير الجنة ـ لتحتجزا معنا ها هنا في سجننا هذا.. هه..

رجل ملتحٍ ينظر لهما شذراً.. أشعر بالضيق..

هل صحيح أننا لا نحب.. ولا نسمح بالحب..

أشحت عن الأتوبيس وركابه تماماً.. نظرت إلى الخارج من خلال الشباك..

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم..

(موظف ينظر في ساعته مدركاً أنه سيتأخر على عمله).. الجريدة مطوية في أربع ثنيات تحت إبطه المتعرّق..

بالخارج أرى سيارة زرقاء كبيرة.. إنها عربة مساجين..

يصطدم شخص مجهول بالموظف.. أسمع صرخته واعتذاراً من الشخص المجهول.. أنظر إليه مرتدياً فانلة وبنطلون جينز مهترئ.. ذقنه غير محلوق وشكله مزرٍ بصفة عامة بالنسبة للوهلة الأولى..

أتحرك في عصبية وضيق وتوتر..

أعاود النظر.. من النوافذ الضيقة ذات القضبان.. أرى تلك الأيادي المتشبثة..

تُرى أي جرائم تلك التي ارتكبوها ليكونوا هكذا..

هل من الممكن أن يكون هذا الذي ينظر لي من الفرجات الضيقة.. قاتل؟!!

هــل مــن الممكــن أن يكون زميله الذي يجاوره هذا.. سارق؟!!

مغتصب؟!!

تاجر مخدرات ؟!!.. هه؟!!

ازدردت ريقــي فــي صــعوبة بالغة.. أطرقتُ بنظري خوفاً من مجهول ..

ــ هوه ربنا مش هايرحمنا من اللي احنا فيه ده.؟!

إنــه الموظــف ثانــية فــي ضــيق أكــثر مــن المرّة الماضية..

التفت حوله كأنه يدافع عن نفسه:

ــ الإمضــا الســاعة تســعة.. والساعة دلوقت تسعة إلا ربع..

الملتحي:

ــ إصبر يا أخي.. إن الله مع الصابرين ..

يصــعد إلــى الأتوبــيس بائع سكر نبات متجول.. يشق طــريقه بصــعوبة بيــن الأجســاد المتلاصــقة موزعــاً

بضاعته على حجْر كل جالس ثم بدأ العمل..

ــ أيوه السكر النبات.. حد عايز سكر نبات..

ثم أردف:

ــ يجلــي الصــدر ويقــوّي النظر.. يعطّر الفم ويضيّع الهــمّ.. يعــالج الكحــة ويقــوي الصــحة.. أحسَــن حاجة السكر النبات.. حد قال هات..

استأنف:

الكيس بعشرة.. والتلاتة بربع جنيه..

لا أحــد يــريد أن يشــتري.. إلا أنه لا ييأس ويعيد من الأول مرة ثانية..

أنظر من الشباك مرة أخرى..

إنهــا ملجــأي الوحــيد ومــلاذي لأرى العــالم الخارجي..

مــاذا لــو نزلــتُ الآن واســتأنفت السير على قدمي.. إنها أسرع بلا شك..

أتطلع إلى المساجين ثانية.. إلى عيونهم..

قشعريرة باردة أحسها في جسدي..

ــ أوووف...

إنهــا الفــتاة نفســها ثانــية.. لكن السبب هو شاب وسيم يحاول الالتصاق بها..

الملتحي:

العياذ بالله..

يســبّل الفــتى بعينــيه ويمســح علــى شعره المصفف بعناية.. ويغمز للفتاة..

رجــل طيــب كبــير فــي الســن.. تلمع صلعته بفعل العرق الذي تنزفه غزيراً:

ــ حاسب يا إبني.. دي زي أختك برضه..

يبتســم الفــتى ابتســامة أقــل ما يمكنني وصفها به هو أنها فجة...

السائق يضرب نفير الأتوبيس مستعجلاً المسير..

ــ أستغفر الله العظيم..

إنه الموظف ثانية يضرب كفًا على كف..

الشـــاب الأنـــيق ذو الـــبذلة والـــ (سامسونايت) ــ يبدو أنـــه مـــندوب لشـــركة مـــا ــ يشعر بالحرارة لأول مرة.. يفك الكرافته قليلاً ويفتح زر القميص الأول..

السيدات بالخارج يراقبن الزحام من البلكونات..

إنها التاسعة..

ــ دلوقت هاعمل إذن تأخير.. (الموظف).

ــ العياذ بالله.. (الملتحي).

ــ بأحـــبّك.. (الفـــتى يهمـــس لفتاته في رومانسية ليس لـــها ما يبررها).

فلاح يضع أقفاص فاكهة فوق رأسه يتساءل:

ــ هيه بلدكو زحمة كده على طول..

أضحك في قلة ذوق..

الكمســـاري يـــزعق علـــى السائق من مسافة بعيدة.. لا يصل صوته إليه.. ينزل ويصعد من الباب الآخر..

بائع السكر النبات لم يبع بعد.. ولم ييأس..

أعاود سماع شجار (سعاد) وزوجها..

ـــ وانا كمان.. (همست بها الفتاة لحبيبها).

ـــ اتأخرت خاااالص.. (الموظف).

– يمنع الكحة.. ويقوي الصحة.. (البائع).

– أووووف.. (الفتاة واضعة إصبعين لتسدّ أنفها من رائحة السمك).

أنظر لسيارة المساجين.. أضحك في سري لمدى التشابه بيننا في الحبس..

نحن جميعاً مسجونون في ذلك الأتوبيس..

أوقف السائق الموتور.. وعلا صوته وصوت الكمساري بالسخرية من الأتوبيسات والسائقين والمفتشين والكمسارية..

ما زالت السيدة السوداء.. سوداء..

زفرت في ضيق..

خلع مندوب الشركة جاكتته ووضعها على يده..

الفتى الوسيم غمز للفتاة ثانية..

الملتحي: العياذ بالله.. أستغفر الله العظيم..

الموظف يكاد يبكي.. الرجل صاحب الأقفاص يتأفف.. كيس السمك عاود وخزي.. نظرت لصاحبه.. رفعه.. أوووف الفتاة...

ثم فجأة...

لفت نظري حركة غير طبيعية داخل عربة السجن...

الحركة تزداد عنفاً وجلبة.. تجتذب بعض الناس لمراقبتها من داخل الأتوبيس أو من السيدات المتفرجات في الشرفة ينقين الأرز ويُقمّعن البامية ويخرّطن الملوخية لغذاء الأولاد.. وأحياناً الرجال للأوز...

لا بد أن صراعاً ما يدور داخل عربة السجن.. ربما أن المساجين يقاومون رجال البوليس للهروب.. تمنيت من كل قلبي أن ينجحوا..

لا أدري لماذا ؟!!

ولكنني هكذا تمنيت...

وبدأت المراقبة تستحوذ على كل اهتمامي..

كلّنا بدأنا المراقبة..

(سعاد) كفّت عن الشجار.. همسات عصافير الجنة سكنت.. الموظف ما عاد ينظر للساعة.. الملتحي مر عليه زمن لم يستعذ فيه.. الرجل المزري – كم هو أشبه باللصوص – يُراقب.. كفت نداءات البائع.. ممسكاً بالأقفاص في عناية التفت الفلاح بكل كيانه جهة الشباك.. السائق والكمساري اشرأبت أعناقهما خارجاً.. السيدات كففن عن التنقية والتقميع والخَرط.. الفتاة كفت عن الأوووف.. والمندوب سقطت جاكتته دون أن يبالي.. الفتى ترك شعره وانعدلت عيونه عن التسبيل لرؤية ما ستسفر عنه مقاومة المساجين.. السمك في الكيس تعفن ولكن أنفي كفّ عن شمه..

ينفتح الباب..

يـــنزل مـــنه بعـــض المســـاجين.. نصفـــق في سعادة.. جميعاً...

ــ هيه.. هييه.. هيييه..

انطلقت حناجرنا..

يـــنقض المســـاجين علـــى آخـــر فلـــول الحـــرّاس بالخارج..

ينجحون بمباركة من الله..

ــ الله أكبر.. الله أكبر..

زعق الملتحي..

عـــلا صـــفير استحســـاننا.. علـــى نغمـــات تصفيقنا بدأ المســـاجين يرقصـــون رقصـــة الحـــرية في وسط الشارع المزدحم المتوقف..

لقد تغلبوا على ما كان يعوقهم..

زغـــرودة انطلقـــت مـــن حـــنجرة الســـيدة الســـوداء.. وطفح البِشر على وجهها..

أصـــابتني الدهشـــة.. شـــمّر المـــندوب كُمـــيّ القميص وعلت وجهه السعادة البالغة..

أخذت أصفّر وأصفّق في جنون.. ومعي كلاكسات العربيات المتعطلة في مباركة جماعية..

زعق زوج (سعاد): - براڤو عليكو.. براڤو يا ولاد.. أحسن..

ينطق صوت بائع السكر النبات: السكر النبات عليّ المرّة دي يا اخوانّا..

ويبدأ في تفريقه متمايلاً على إيقاع التصفيق كأنه شَربات.. وما أن ينتهي حتى يقفز في خفة من الأتوبيس مشاركاً المساجين الرقص..

تجلجل ضحكة الفلاح صافية وهو يقول:

ــ عجايب بلدكو دي والله.. عجايب..

للمرة الأولى أنتبه إلى شاب يرتدي نظارة شمسية يقول:

ــ أنا طول عمري برّه مصر.. في بلاد أوروبا.. أول مرة أشوف حاجة زي دي..

صاحب كيس السمك:



ـ طبعاً يا خواجة..

لا أحس بنفسي إلا وأنا أتمايل مع إيقاع رقص المساجين..

أصرخ: يالا بينا يا إخوانّا ننزل..

السيدات في البلكونات بدأن يشاركن التصفيق.. بل وقلبن ما كانوا يعملون وبدأن في التطبيل على ظهور الصواني.. بينما الكلاكسات تضبط الإيقاع..

أسمع صوت زوج (سعاد) عالياً من وسط قهقهة مجلجلة:

ـ إنتِ طالق يا (سعاد).. ها ها ها.. طالق يا حبيبتي..

ثم يضحك في هستيريا ويغادر الأتوبيس مشاركاً المساجين والبائع الرقص...

يصفّق الملتحي في سعادة وهو يردد: الله أكبر.. الله أكبر..

ذو النظارة الشمسية وقد نزل ليشارك في حلبة الرقص: البلد وحشة صحيح.. بس الرقص.. حلو..

يلقـــي الكمســـاري بالـــتذاكر ويمســـك بـــيدي الســـائق يكونـــان حلقـــة ضـــيقة وهمـــا يرقصان مع الجميع.. بما فيهم ركاب السيارات الأخرى..

الموظـــف يهـــتف: هـــيه.. الحمـــد لله.. مـــش ها روح الـــنهاردة.. طـــوز فـــي الشـــغل.. طـــوز فـــي الإذن.. النهاردة أجازه.. النهاردة أجاازه..

الـــرجل ذو الهيـــئة المـــزرية يخـــرج محفظة من جيبه يـــردها للموظـــف ويعـــتذر لـــــه عـــن سرقته ويبدأ في الرقص معه في سعادة بالغة..

يضـــع الفـــلاح أقفاصـــه أرضـــاً.. يخلـــع عِمّته ويهلل بها..

الفتاة تنزل من الأتوبيس..

فـــي إغـــراء تـــبدأ فـــي فك أزرار قميصها الفضفاض حـــتى تخلعـــه.. ثـــم تفك سوستة الجيبة وتتركها تتدلى في الأرض.. وحيـــن تأهـــب الجمـــيع لرؤيـــتها عارية.. بدت تحـــت الملابـــس مـــرتدية بذلـــة الـــرقص.. تناولت العمّة من الفلاح وتحزّمت بها وبدأت في الرقص قائلة:

ـ أوريكو شوية بقى من شغل بالليل..

الفتى الوسيم بدأ في الغناء قائلاً:

ـ يا لِيلي.. يا لِيلي.. يا عيني..

وللمـرة الأولـى نـدرك كم هو جميل صوته.. تغمز لـه الفتاة فيرسل لها قُبلة عبر الأثير فتمسح شفتيها في إغراء وهي تتلوى وترقص في مجون..

السـيدة الحزيـنة تشـارك سـيدات الـبلكونات فـي التطبـيل علـى جسـد الأتوبـيس يشـاركها المندوب ـ الـذي كـان أنـيقاً ـ علـى شـنطته الـ (سامسونايت).. الفتى يتبادل قُبلة حارّة مع فتاته..

يضـع الفـتى الوسـيم يـده علـى أذنـه فـي وضع سلْطنـة.. الله عليه..

يلقـي الـرجل بكـيس سـمكه المتعفـن لكلاب وقطط الطريق ويبدأ في مشاركة الجميع الرقص..

حتى أنا..

تخليت عن موقعي..

نزلتُ من النافذة رغم قميصي وبنطلوني الغاليين..

في وسط الحلقة تماماً..

أمسك بعصى وجدتها على الرصيف..

وأبدأ في الرقص مع الفتاة الراقصة..

وكل المجموعة !!!



غضب الله

لــم أكن قد رأيت (سعد بكري) منذ فترة ليست بالقليلة.. لــذا فإنني لم أملك لدى مرآه سوى حمله على الجلوس إلى المقهــى الــذي يتصدر حارتنا.. ولم يَمضِ وقت كثير حتى كانــت أكــواب الحلبة الحصى تتلاعب بين أيدينا بحبيباتها الصــفراء الذهبية ورائحتها النفاذة.. البخار يتصاعد ليداعب أنفــي ويدغدغهــا مما شجعني أن أروي لــه قصة الحاج (خلــف محمــد إبراهــيم) شيخ حارتنا.. والحقيقة أن الشيخ (خلــف) خاتمة القصــــة وليــس بدايتــها.. فقد بدأ الأمر بـــ (زهرة) بنت الحاج (رجب مصطفى) وهي أم لأربعة أولاد وبنتين، ومتزوجة من النجار المسلح (شكري رمضان أحمــد).. فقد كانت حبلى كالعادة ولكنها أجهضت وفاجأتها حُمّــى الــنفاس وحار معها الأطباء.. إلا أنها تحسنت فجأة لمــدة يوميــن.. ثــم عاودتها الحُمّى بعدها بشدة هذه المرة وظلت حرارتها أربعين أو أكثر لمدة أسبوع ثم ماتت.. وقد كـــان من الممكن أن يمر الأمر مرور الكرام لولا أنه وفي الوقــت ذاتـــه توفي (علي محمد إسماعيل) الموظف الكبير

بـــوزارة المالية نتيجة أزمة قلبية مفاجئة، وكلٌ من (أسامة) و(محـــي) أبـــناء المعلم (جمال الأسيوطي) في حادث سيارة بســـيط، وكـــذا البنـــت (أنهار) رائعة الجمال الابنة الوحيدة للمهـــندس (جمـــيل حلمي) وزوجته الطبيبة الشابة (لبنى)، وهـــذه المـــرة كان السبب حساسية غريبة لحشرة ما لدغتها وهـــي نائمـــة.. قـــد يكون الأمر مصادفة لكننا نحن سكان الحـــارة البسطاء لم نره كذلك.. فمثلاً (علي محمد إسماعيل) لـــم يشـــكُ يوماً من علـــّة، والحادث الذي قتل أبناء (جمال الأســـيوطي) فقـــد كانَ بسيطاً للغاية.. لا يقتل، أما (زهرة) و(أنهار) فقد كان مرضهما غاية في الغرابة.. مما اضطرنا للذهـــاب للحاج (خلف محمد إبراهيم) شيخ الحارة ليُفتينا في أمـــرنا.. فما كان منه إلا أن ماطلنا الإجابة حتى المساء في المسجد بعد صلاة العشاء.. كان الجمع غفيراً في المسجد لم يُشـــهد مـــثله مـــن قـــبل.. حتى السيدات وقفن في الشبابيك والبلكونات.. والأطفال توقفوا عن اللهو وانتظروا أمام باب المســـجد.. أمـــا الـــباعة وأصحاب المحال فقد أوقفوا البيع والشـــراء وانطلقـــت عيونهم جاحظة تبحث عن مجهول لا يدرونـــه.. إلا أن الحاج (خلف) لم يحضر لصلاة العشاء.. وحيـــنما قابلـــناه في اليوم التالي أرغى وأزبد ووعدنا وعد الـــرجال أنـــه مُفتيـــنا لا محالـــة بعد صلاة الجمعة.. حيث

تضـــاعف الجمع.. وامتدت الأعناق والرؤوس المتجاورة.. وجـــاء الحـــاج (خلـــف).. وبعد الصلاة وقف وقفته المهيبة الوقـــورة.. وبعـــد السلام والحمد والثناء على النبي (محمد) بما هو أهله.. انقلبت سحنته.. وأخذ يداعب ذقنه النابتة فيما يشـــبه التفكـــير العميق.. وفتح فمه حتى تدلت لهاته ورأينا جمـــيعاً ظـــلام جوفـــه ظاهراً للعيان.. وارتفع صوته وهو يقول:

ــ إنـــه غضب من الله.. توبوا إلى الله وأخلصوا التوبة.. استغفروا ربكم قبل أن يَحلّ علينا غضبه...

وأعـــترف أن كلمات الحاج (خلف) كانت بمثابة الصدمة لنا جميعاً.. وأثارت داخلنا الرجفة.. إلا أن الأمور تطورت بشـــكل سريع بعد ذلك.. فبينما وجْه الحاج (خلف) قد احمرّ وانتفخـــت أوداجـــه.. وهو يرعد فينا أن نتوب كيلا تلاحقنا اللعـــنة ويصـــيبنا الغضـــب الإلهي.. إذا به ينزلق من فوق المنبر بعد أن تعثر في طرف جلبابه.. ليسقط الحاج (خلف) على أمّ رأسه...

ثم لا ينطق بعدها.. أبداً.!!



دولار

لم يكن قد رأى دولاراً من قبل..

ولم يكن يظن أن يراه..

ظـن أنـه سيحيا ويموت دون أن يلمس بيديه واحدة من تلـك الأوراق الخضـراء الجبّارة.. تلك التي يموت بسببها البشر.. وعليها يتحاربون.. تقوم دول.. وتذوي أخرى..

كـان موظفـاً بسيطاً يعيش اليوم بيومه.. لا يستطيع أن يشـتري جريدة الصباح يومياً.. فقد أصبحت تكلّـف مبلغاً وقـدره.. وفي ذلك إرهاق شديد وترف لا يقدر عليه.. حتّى السـجائر ــ متعـته الوحيدة ــ اضطر إلى تخفيض عددها بمقـدار النصـف أو أقل.. هو يكتفي إذن بالعدد الأسبوعي مـن الجريدة و.. نصف سجائره !!! وإذا لم تجد زوجته ما تطـبخه للغـداء اليوم مثلاً.. فلا يهم.. فقد تغدى كثيراً من قبل.. فهل زاد منه ذلك شيئاً أو نقص ؟!!

أفـاق (سيد علي) من تأملاته على صوت صبي المقهى

الـــذي أمامه يزعق عليه بصوت جهوري: يا أستاذ (سيد).. تليفون.. يا سي (سيد) أفندي.. إلحق.. تليفووون..

وهكـــذا هرول (سيد) ببيچامته نازلاً الدَرَج المتآكل وكاد يتعـــثّـــر أكـــثر من مرة.. فلم يكن معتاداً أن يتصل به أحد تليفونياً.. عَبَر الشارع الضيّق في سرعة فكاد صبي يدهسه بدرّاجـــة واصـــطدم بامـــرأة تحمل خبزاً طازجاً من الفرن فأسقطه من يدها وتركها تسب وتلعن..

أخيراً..

أمســـك ســـمّاعة التليفون وقد تصبّب العرق على جبهته الصـــلعاء غزيـــراً.. قلبه يخفق في وجل.. مستعد هو تماماً الآن كـــي يصـــاب بأزمـــة قلبـــية.. جسده كله يرتجف في عنف..

ـ أستاذ (سيد علي) ؟!

ـ ... أيـــ... أيـــ... أيـــــــوه...

ـ إحـــنا شركة (إس . إم . إل).. وحضرتك كنت قدّمت في المسابقة بتاعتنا علشان تدخل السحب الكبير على جوايز كتير.. صحّ ؟!

كــان مــترددا للغاية.. أخذ يحاول التذكر متى تقدم لهذه المســابقة.. ولكنه لم يستطع.. ذهنه المكدود المشوّش فشل في استرجاع ما حدث في الماضي القريب.. إلا أنه استجمع شجاعته على شكل كلمة واحدة رد بها..

ــ صحّ..

ــ وطــبعاً إنــت عارف إن السحب على الجوايز بيكون على الهوا.. وبينقله التليفزيون وكافة القنوات الفضائية..

اســتهوته المكالمــة أكثر.. فرد في ثقة كان يفتقدها منذ لحظات قليلة:

ــ طبعاً.. طبعاً..

ــ وطــبعاً إنــت عارف إنك لازم تحضر السحب بنفسك وإلا هاتتحرم من الجايزة بتاعتك..

عاوده التردد ثانية.. إلا أنه واصل: طبعاً.. طبعاً..

ــ يــبقى لازم حضرتك تشرفنا بعد ساعة واحدة بالظبط على العنوان اللّي هامليّه لك دلوقت..

ارتــبك فــي شــدة.. ساعة واحدة فقط.. إنه غير مستعد

بالمــرّة.. تلعــثم وكادت السمّاعة تسقط من يده وهو يبحث حوله عن قلم وورقة يكتب عليها العنوان..

وكما هرول نازلاً..

هــرول إلـــى شقته صاعداً ليرتدي ملابسه على عجل.. وشتـّـان الفارق..

حين نزل.. كان الرعب يملؤه والخوف وعدم الثقة.. أما الآن.. فملؤه الأمل، وتحركه الرغبة والثقة في الفوز..

لم يكن لديه وقت يضيّعه..

نظــر للفلــوس التي معه.. وقرّر أن يتمرّد على وضعه ويركــب تاكسياً.. فهولا يحتمل أن يتأخر على السحب.. لو حــدث ذلــك وتأخّـــر.. فسيقتل نفسه.. وما إن خرج من الحــارة حــتى اســتقلّ أول تاكسي قابله وأملاه العنوان في سرعة وحماس..

علَــت وجهه ابتسامة رضـــــا..

وأخذ يفكر في الجائزة التي سيفوز بها بعد قليل..

أتكون سيّارة ؟!!

جائز جداً.. دائماً تكون الجائزة الأولى في هذه المسابقات سـيارة.. إلا أنـه لم يتحمس لتلك الفكرة كثيراً.. فحتى لو كانـت الجائـزة سـيارة.. فهـو لا يعـرف القيادة.. ثم ان السـيارات مكلّفـة للغايـة.. لا يهم.. سيبيعها ويستفيد من ثمنها.. السيارات الآن تباع بأسعار غالية جداً..

أتكـون تلـيفزيوناً ملوناً.. جميل جداً.. فهو أفضل كثيراً مـن التلـيفزيون القديـم الـذي لديهم.. ذي اللونين: أبيض وأسـود.. فقـط لا غير.. سيمكنه عندئذ مشاهدة المباريات واللاعبين أصحاب الملايين وبالألوان الطّبيعية..

ومـن المحتمل أن تكون الجائزة عمرةً أو حجًّا.. وعندها أيضـاً سيرضى.. فسيتمكن من أداء الفريضة دون تكلفة.. ويتقرّب إلى الله فيشتري بذلك دينه وآخرته..

أو مبلغاً من المال.. أو غسالة.. أو مكنسة كهربائية..

أي شيء.. كل شيء جميل.. المهم أن يفوز..

وبينما كان يصفـّر ويدندن في سعادة..

إذ لفـت نظـره أن يـده مرتفعة قليلاً عن مستوى الكنبة الخلفـية للتاكسـي الذي يستقله.. في بطء نظر إلى موضع

يــده.. ليجد حقيبة من نوع (السامسونايت) مسجاة بجواره.. هكذا ومنذ البدء وهي موجودة بجانبه وهو لم يلتفت..

وعــندما نــبّه السائق لذلك.. أنكر أن يكون الزبون الذي سبقه قد ترك حقيبة مشابهة.. ثم إنه كان يجلس على المقعد الأمامــي.. ولأنــه كان يخشى على الحقيبة من عدم أمانة الســائق فقــد سمع كثيراً عن سائقي التاكسي الذين يجدون أشــياءً مفقودة في سياراتهم ثم لا يعيدونها إلى أصحابها ولو تعــرّفوا عليهم.. لذا فقد أصرّ أن يذهب بالحقيبة بنفسه إلى قسم البوليس ليسلّمها..

ــ مــا بلاش يا أستاذ.. لحسن يكون فيها مصيبة كده ولاّ داهية وتيجي فيك..

أحــس (سيد) بعدم الأمان أكثر من جهة السائق.. فهتف في عناد..

ــ مش ها يحصل حاجة..

ونظــر للحقيبة كأنه يسألها إن كان بها شيء يجلب لـــه المشاكل.. إلا أنه نفض رأسه وكأنه ينفض الفكرة..

وإن هي إلا لحظات حتى توقف التاكسي وقال:

ــ اتفضـــل يا أستاذ.. هوّه ده العنوان.. وخد الشنطة معاك اعمل فيها اللّي يعجبك.. أنا مش ناقص مصايب..

نظـــر (سيد) لـــه بترفـــّع ليس لـــه ما يبرره.. بل وترك لــــه بقشيشاً أيضاً.. ولِم لا.. وبعد قليل ربما يكون صاحب سيارة ملاكي.. أو فائزًا بمبلغ أمامه عدّة أصفار.

نظـــر لســـاعته.. كـــان متبقـــياً حوالي ثلث ساعة على موعده.. نظر يمينه ويساره في ترقب.. ثم نظر للحقيبة في يـــده.. هـــل مـــن الممكن حقاً أن تحتوي هذه الحقيبة على مصـــيبة.. ولِم لا.. وإلا لماذا تركها صاحبها هكذا بإهمال؟ ربما كان يقصد أن يتخلّص منها عن عمد..

بدأ القلق يعاوده..

ألـــم يكن من الأحرى أن يتركها في التاكسي.. ولكن ماذا لـــو أن ســـائق التاكسي لص.. وصاحب الحقيبة يبحث عنها الآن في ضياع وحزن.. ألن يكون هو عندئذ سبباً في عودة الحق إلى أصحابه..؟

ولكن..

عليه أن يتأكد مما داخل الحقيبة أولاً..

عليه أن يفتحها..

حتى على الأقل كي يهتدي لعنوان صاحبها !!!

كـــــلا.. كـــــــلا..

سيسلّم الحقيبة للشرطة وهم يتصرفون..

ولكـــن مـــاذا لـــو أن بالحقيبة شيئاً مريباً.. كيف سيبرر وجودها معه ؟!!

كـــــلا.. كـــــــلا..

يجب أن يفتح الحقيبة..

نظر حولـــه مرة أخرى.. ثم مرة ثالثة..

كـــان قلـــبه ينبض سريعاً.. وريقه جافٌ تماماً.. وصدره يعلـــو ويهبط من فرط الانفعال.. إن الإثارة اليوم لكثيرة جدًّا عليه.. أكثر مما تعوّد..

بأنـــامل مرتعشـــة بدأ يعالج قفل الحقيبة.. واندهش عندما اســـتجاب له.. يـــبدو أن الحقيبة مفتوحة.. ازدرد ريقه في صـــعوبة ويـــده تمـــتد لـــتعالج القفل الثاني.. فانفتح.. نظر حولـــــه مـــرّة عاشرة.. ثم بدأ يفتح الحقيبة في بطء شديد.. كأنه يفتح بوّابة جهنم..

ومـــا إن حانـــت مـــنه التفاتة لما داخل الحقيبة حتى كاد يســـقط مغشـــيًّا علـــيه.. فـــبداخل الحقيبة كانت هناك رُزم متراصّة من الأوراق المالية الخضراء اللامعة !!!

أغلـــق الحقيـــبة في سرعة شديدة وتأكد للمرّة الألف أن أحداً لم يشاهده.. قلبه سيتوقف الآن حتماً.. إنه لا يصدق ما رأته عيناه منذ لحظة..

كل هذه الأوراق..

كل هذه...

دو.. دولا.. دوولا... دووووولاااا... راااات !!!!

دولارات.. دولارات.. دولارات..

إنه سيُجن حتماً..

فـــتح الحقيبة نصف فتحة.. وفي شبق دسّ يده في الشق الضـــيق متحسساً الأوراق المالية بالداخل.. ارتجّ جسده كله لدى ملامسة أنامله للدولارات..

هـــو لـــم يستشعر مثل هذه اللذة في حياته قبلاً.. إن هذا لأمتع شيء في العالم.. إنه الآن يتحسس دولارات..



يتحسس الشيء الوحيد في الدنيا الذي كان يتمناه..

في تردد شديد..

شـــدّد قبضــــته علــــى الورقة العُليا من إحدى الرُزم وبدأ يســـحبها للخـــارج.. ثم أغلق الحقيبة ثانية في سرعة وأعاد القفلين مكانهما..

بعيون مغمضة وجسد يرتعش بدأ يقرّب الورقة الخضراء مـــن أنفـــه.. وبـــدأ يتشـــممها.. رائحة الورقة تبعث داخله إحساســـاً غريـــباً بالنشـــوة.. وهنا.. تذكر المسابقة.. وفكر لوهلـــة ألا يشـــترك.. ما حاجته هو للاشتراك وبحوزته كل هـــذه الـــدولارات؟! إلا أنـــه تذكر أنه يجب عليه إعادة هذه الحقيبة إلى أصحابها مهما يكن.. سيسلّمها للبوليس ويحصل علـــى مكافأتـــه منها.. الله.. الله.. هذا جميل جدًّا.. سيذهب للمســـابقة.. ويفوز.. ويحصل على نسبة من هذه الدولارات مكافأة على أمانته.. إن الحياة لجميلة جدًّا..

دس الورقـــة في جيبه في سرعة متذكرًا أنه باقي خمس دقـــائق فقـــط على بدء السحب.. وعليه أن يعثر على مقر الشركة.

كالمجنون أخذ يبحث عن الـ (إس . إم . إل) المزعومة دون جدوى.. وسأل كل مَن وجده في طريقه فنفوا معرفتهم بوجـود شـركة بهذا الاسم أصلاً.. أخرج الورقة التي بها العـنوان.. فأخبره أحدهم أن هذا الرقم غير موجود أصلاً.. بدأ يحس بالقهر والخديعة.. لقد كان أحدهم يعابثه.. ولكن.. لماذا.. ولماذا هو بالذات.. و...

ثـم فكر.. إنه حقاً يجب عليه أن يشكر هذا الشخص على هذه الدعابة السخيفة.. فلولاه.. ما وجد الدولارات..!

عاوده الرضا والإحساس بالسعادة..

وبمنـتهى الحمـاس توجه إلى أقرب قسم للشرطة ليسلّم الحقيـبة.. إلا أن الطامّة الكبرى كانت بانتظاره هناك.. فقد تبيـن أن هـذه الدولارات.. مزيّفة.. ليست حقيقية.. أحسّ بالحسـرة والقهـر.. حتى الدولارات أيضاً.. وهم.. أخبروه أن عصـابة للتزييف وقعت بأيديهم وأنهم كانوا يبحثون عن هـذه الـنقود دلـيلاً لإدانتهم وشكروه على حسن تعاونه.. ووعدوه بمكافأة استثنائية مائة جنيه.. ابتسم في عدم حماس والضابط المعنيّ يشد على يده في حرارة..

وما إن خرج من القسم..

حتى أحسّ أنه كان يحلم..

هو الآن سيستيقظ.. إلا أنه لم يحدث.. لقد كان كل شيء حقيقيًّا وواقعيًّا في مرارة عجيبة..

مجرجـــراً أذيال الخيبة بدأ رحلة عودته إلى المنزل دون جائزة المسابقة.. ودون الدولارات..

وهنا..

هنا فقط.. تذكر الورقة التي في جيبه..

الورقة الخضراء التي دسّها على عَجَل..

نظر للورقة.. وابتسم ابتسامة صفراء..

أغمض عينيه..

وتشممها مرّة أخرى مستعيداً إحساسه السابق..

وعندما فَرَغ.. فتح عينيه.. أعاد الورقة إلى جيبه..

واستأنف العودة لمنزله.. سيراً على قدميه..

مكتفياً كل قليل بإخراج الورقة الخضراء من جيبه..

يـــتأملها.. يتشممها..

ثم يواصل المسير..

ثانية!!!

أحداث ما قبل وفاة ملك

كـــانوا قد أعلنوا أن الملك مريض للغاية.. ولكنه لم يمت بعد...

كنـــت إذ تـــنزل الشوارع والأسواق.. ترى الوجوم على وجـــوه الجمـــيع.. حـــتّى الأطفال توقفوا عن اللهو.. لكأن لـــزوجة مـــا قد اختلطت بالهواء فصيّرته ثقيلاً لا يقدر على أن يـــنفذ داخـــل صدورنا.. التماعات عيون النسوة لم تكن سوى دموعهن الحبيسة.. صمت الجميع أشبه بالصراخ...

ماذا سيحدث لو مات الملك...

ماذا يحدث دوماً لو مات ملك؟!!

لـــم يكـــن قـــد مات لنا ملك من قبل.. ولم نكن نظن أنه ليموت..

لطالمـــا ظنـــنا أن الملـــوك صـــنف آخر من البشر دائم كالدهـــر.. لا يهـــرم لا يُهزَم لا يتغيّر لا يموت.. ثم فكّرنا أنهـــم لا بـــد سيجدون لمرضه الدواء الشافي.. فهو الملك..

والملـوك دومـاً تجـد لها علاجاً.. ليس الملك بالكائن قليل القدر مثل العم (حنفي) الذي توفي الأسبوع الماضي بعد أن فاجأته الحمّى لأنهم ما وجدوا لـه علاجاً.. نقلوه في سيارة الإسـعاف التـي اسـتدانت زوجته لدفع ثمن تأجيرها لذلك المستشـفى الكبـير في طرف المدينة.. المستشفى الملكي.. وهـو مسشـفى مجاني يقدم خدماته لكافّة المواطنين.. نظر لـه الطبيـب من فوق لأسفل وقرّر أن نشتري لـه دواءً ليطيب.. ولكنّه لم يحدث.. لأننا لم نجد الدواء...

هذا بالطبع لن يحدث مع الملك...

* * *

أعلنوا أن حالة الملك مستقرة اليوم...

فـبدت على الوجوه مسحة من التردد.. فهم لا يعرفون.. هـل هذا الخبر يستحقّ أن نفرح من أجله.. أم نكتفي برفع أكـفّ الضراعة إلى الله علّه يأخذ بيد الملك.. أو يأخذه كله إن أراد...

علمـنا مـن مصدر موثوق به.. أن اليوم.. سيكون يوم السَّحَرَة...

أجل.. صحيح ما سمعتم...

كــل من يجد في نفسه القدرة على السحر أو حتّى يدّعيه يذهــب إلى القصر الملكي فيمارس السحر على الملك حتّى يطيب...

وقد ذهب الكثير.. وذهب معهم الفتى (ماهر).. وهو في حقيقة الأمر مجرد فتًى مغامر.. لا معرفة لــه بالسحر ولا غــيره.. ولكنّه قدّر أن بالأمر رائحة المقامرة.. إن تحسّنت حــال الملك فله الفضل ولــه الثناء ولــه الجُزاء الجميل.. وإن لم تتحسّن فما خسروا ولا خسر وكفى الله المؤمنين شرّ القتال (واحنا عملنا اللّي علينا والباقي على ربّنا)...

ولكن (ماهرًا) لم يَعُدْ...

وكذا السَّحَرَة...

لا بدّ أن شيئاً مريباً قد حدث لهم...

تُرى هل مات الملك؟!!..

وبالرغم من أننا لم نعرف.. لا هذا ولا تلك...

إلاّ أنّ الكثير ممّا حدث علّمنا ألاّ نسأل...

* * *

ما زالت حالة الملك مستقرّة...

وكان هذا سبباً جيداً لفرض ضرائب جديدة...

وأسموها ضريبة بدل مرض الملك ...

والأصل فيها أن الشعب لا بد أن يساعد في الحفاظ على صحّة مَن يحكمونه.. لذا فإن الضريبة الجديدة سيتم صرفها علـــى عـــلاج الملـــك.. وهو غرض نبيل كما ترون.. ولا غضاضة عليه البتّة..

بل إن الشعب كله قد هتف...

– يحيا الملك.. يعيش الملك...

وحيـــن ذهبت زوجتي لشراء رطل من اللحم لزوم غذاء الأطفال لم تجد.. وأخبروها أن اللحم ومرق اللحم مفيد جدًّا لصحة الملك.. فلم نعترض...

وللحجّـــة ذاتهـــا نقصـــت صـــنوف من الفواكه والبقول والزيت والسكر والأرز...

– يحيا الملك.. يعيش الملك...

هتف الشعب...

* * *

مرّ عام...

حالة الملك مستقرّة...

كـان الشـعب يتمنّى للملك (لو) يتحسّن.. أو يسلّم أمره للخـالق فـيموت.. ولكـن منذ متى تحققت أمنية شعب بلا ثورة...

لـذا فقـد فكر نفر غير قليل منّا أن يذهب للقصر الملكي ليستطلع الأمر خاصّة وأن حال البلاد صارت لا تسرّ عدوًّا ولا حبيب...

صنوف الأكل والشرب كلّها ذهبت فداءً لصحّة الملك...

الضـرائب مـن كـل صنف ولون للصرف على نفقات علاج الملك...

قانون طوارئ تم وضعه للقبض على هذا أو ذلك والزجَ بـه فـي غياهـب سجن لا يرحم لأنه انتقد سياسة مرض الملك...

وهـل أنـت ربّنا – أستغفر الله العظيم – لتعترض على مشيئته في مرض الملك...

ليـــت أحداً عاد من رحلة استكشاف القصر الملكي.. على الأقل كنّا عرفنا كُنْه مرض الملك...

ولكنّه لم يحدث...

* * *

اليوم الذكرى الخامسة...

لمرض الملك واستقرار حالته...

جفّ نهر المملكة الرئيسي...

بـــدأت كثـــيرات مـــن النســـاء.. الأمهات والزوجات.. يتكسّبن...

مِنْ طُرقٍ لا يسعني الاستفاضة في وصفها.. وهي طرق لم تكن الحرّةً لتتكسّب منها أبداً...

علّمنا أولادنا...

التســـوّل.. ليحصل كلّ منهم على ما يقدر عليه للمساعدة في المصاريف...

ما صارت لنا حاجة...

للملابـــس.. فالأمـــر صــــار بينـــنا سواســـية.. لن ننظر للآخرين ونحن نعلم أننا أيضاً عراة...

للمـــرة الأولى بدأنا نلاحظ سرباً كبيراً من النسور يحلق في سماء المملكة...

ماذا حدث للبلابل وأشجارها...

ما عاد هناك حديث هامس بين فتى وفتاته...

بحثت عن زهرة لأضعها على قبر زوجتي فلم أجد...

أعتقد أنّني غاضب...

فليمت الملك...

فليسقط الملك.. سُحقاً للملك...

هتفت وحدي...

العيون كلها تتابعني كأنّني معتوه...

فليسقط الملك.. سُحقاً للملك...

تساءلت وأنا أهتف وحدي...

أيكون المرض قد أصاب الشعب ولم يُصِب الملك؟!!..

* * *

مرّت مائة عام...

حالة الملك مستقرّة...

صـــرنا شـــعباً غريـــباً.. أجسادنا هياكل عظمية يغطّيها الجلد...

مـــا عدنا نحتاج للأكل والشرب إلاّ قليلاً.. نَمَت لنا جميعاً لحـــى وشـــوارب حـــتّى النســـاء والأطفال الرُضّع.. لحى وشوارب رمادية.. وضمرت أثداء النساء.. فلا تُفرّق — في عريـــنا هـــذا — بيـــن رجل وامرأة.. أصبحنا لا نقوى على الحـــركة فما عدنا نريد الحركة في شيء.. البعض منّا نمت لـــــه ذيـــول فـــي أســـفل الظهر يحرّكها يُمنى ويُسرى إن شاء...

غارت عيوننا وتهدّلت أكتافنا...

في صعوبة حملت فأساً على كتفي...

كنت قد قرّرتُ أن أقتل الملك المريض...

تناولـــت كســـرة خبز جافّة بلّلتها ببعض الماء المعكّر.. ظننتها وجبتي الأخيرة...

اقتربــت من القصر الملكي.. على بوابته وقف حارسان ســمينان أبيضـــان بخدود حمراء منتفخة وعرق غزير على الجــبهة.. لحســن الحظ لم يلحظا وجودي الضئيل.. تسلّلت من خلفهما.. وهما يأكلان ويشربان في نهم...

وجدت أمامي ممرًّا طويلاً...

فمشيتُ فيه...

عن يميني وعن يساري ألف باب وباب...

في نهاية الممر سلم صاعد.. فصعدته...

وجدتُ ممرًّا مماثلاً.. وأبواباً مماثلة...

بــنظري اســتطعتُ أن أرى أن فــي نهاية الممر سلمًا صاعدًا...

ولمّــا كنــت مصــمّماً على قتل الملك.. فقد بدأت أفتح الأبواب الواحد تلو الآخر.. علّي أجد خلف واحد منهم...

الملك المريض...

* * *

مرّت ألف عام...

ما زالت حالة الملك...

مستقرّة...

غـــريـــق

بحـــر واسع غريب.. كنت أجلس أمامه الآن.. يهدر في غضب من هذا النهار الشتائي البارد.. رائحة اليود وأرواحٌ كثيرة دفنت بين أحضانه.. تحملها ريحٌ قويّة بعض الشيء.. فـــيها ملـــل.. وفـــيها تجدّد.. بالضبط كما أحسّ.. قف فوق ســحابة أو داخـــل طائـــرة سيبدو هذا البحر مثل نقطة من الزيـــت ساكنة مُقبضة كأنّها لوحة حائط أو ورقة من أوراق كـــتاب ممـــل لا تتغـــيّر ولا تتحرّك.. يبدأ هذا البحر حركةً منـــتظمةً هادئةً رتيبة لو استبدلت السحابة أو الطائرة بعمارة عالـــية أو جـــبل.. أمّـــا أنا.. وفي مكاني هذا.. فهذا البحر بحر.. هادرٌ صاخب.. لا يُسر معه ولا سكون فيه.. فوضى ما بعدها فوضى...

كم هي مختلفة طرق رؤيتنا للأشياء...

زفـــرت فـــي رفق مرّة.. ثم في ضيق المرّة الثانية.. في تلقائية امتدت يدي إلى الجيب العلوي لقميصي فتذكّرت أنّي

توقّفت عن التدخين منذ فترة فزفرت للمرّة الثالثة على التوالي.. أحاول أن أتذكّر ما الّذي أحضرني في هذا المكان المُقفر وحدي.. لكنّي لا أستطيع.. أحسّ برودةً ما تشمل جسدي إلاّ أنّ ذلك لم يجبرني على ترك مكاني الغريب.. لا بد أنّني أتيت هنا لسبب ما.. غرض ما.. هل سأقابل شخصاً ما هنا؟!. في هذا الجو البارد والمكان القصيّ.. هل أردت أن أمسح بعضاً من همومي وأزيل عن كاهلي بعض الأعباء؟!. لا بد إذن أنّي أحمق لكي أفعل ذلك من خلال إصابتي بالتهاب رئوي.. لا بد أنّني هنا لأتذكّر شيئاً ما.. ولكن المثير في الأمر أنّي لا أتذكّر.. ولو حتّى كوني جئت هنا.. لأتذكّر..

نظرتُ للبحر.. عله يُجيبني ويشفي غليلي.. التفتت.. فإذا بي ألمح ما يُشبه ذراعين ملوّحتين لجسد مغمور بالماء.. للوهلة الأولى ظننتني أحلم.. أو أتوهّم.. إلاّ أنّني — وبإطالة النظر — تأكّدت بما لا يدع مجالاً للشك أنّه ثمّة شخص يصارع الغرق باستماتة ويأس شديدين.. نسَق التلويح ذاته يحمل بعضاً من الإحباط والإحساس بالفشل والإخفاق..

أيّ تعس هذا الّذي سوّلت له نفسه بالنزول للبحر في

مثل هذا الطّقس؟!!

السيدان البيضاوان.. لا تزالان تلوحّان.. تستنجدان.. تستغيثان..

لا ألبث أن ألمح رأساً يشب عن الماء في إصرار.. الملامح والسمت أشبه ما يكون لامرأة.. أتكون حورية بحر؟! أم ندّاهة.. كالموجودة في أساطير القُرى؟! أيكون الأمر كله خُدعة؟! أينسج خيالي هذا الشَّرك حولي بمثل هذا الإتقان وهذه الحرفية؟!

يا لي من مريضٍ أخرق..

أنا ها هنا أحاول أن أفلسف الأمور وأجعل لكل شيء في هذه الدُنيا منطقاً ومغزى بينما كل شيء في هذه الدُنيا يفتقد لأيّ منطقٍ أو مغزى.. وفي ذات الوقت الّذي أستمتع فيه بمشاهدة احتضار امرأة.. كل ما يفصلها عن هذه الدُنيا جذبةُ رجل ـ مثلي ـ لبر الأمان !!!

لم أدر إلاّ بنفسي وأنا اندفع.. وبكامل ملابسي.. أخوض عباب البحر الهادر في طريقي نحو المرأة.. لا أشعر ببرودة الماء على جسدي أو بالموج العنيف الّذي يبدو أنّه

غاضـــب لأن شخصاً ضعيفاً مثلي قد تجرّأ وتحدّاه.. بركان مـــن دم يغلي يعتمل بداخلي وأنا أضرب بذراعيّ في منتهى القـــوّة والحسم قاطعاً الأمتار القليلة الّتي تفصلني عن المكان حيث كانت المرأة تستغيث.. لكنّها لم تكن هناك..!!

توقفت وهلة لالتقاط أنفاسي اللاّهثة..

لا بـــد أنّ مقاومتها قد كفّت واجتذب البحر جسدها وهي الآن في طريقها إلى القاع.. ولكن حتّى لو حدث هذا.. فإنّه لـــم يحدث إلاّ منذ بُرهة وجيزة فقد كانت تلوّح حتّى مسافة قريبة من هنا..

كالمجنون.. أخذت نفساً عميقاً.. ملأتُ به صدري.. وفي إصـــرار أشد نزلت برأسي عن مستوى سطح الماء.. الملح يحرق عيوني كماء النار إلا أنّ هذا لا يهمّني الآن..

القـــاع مظلـــم.. والتفاصيل متداخلة.. والدوار يكتنفني.. كنـــت أحس رئتيّ تكادان تنفجران .. إلاّ أنّني ضغطت على نفســـي فـــي محاولة يائسة للعثور عليها وهي لا زالت على قـــيد الحياة.. أخذت أغوص بين الصخور.. أحاول الوصول إلـــى القـــاع.. لم أستطع.. صعدت... كنت أحس ألماً شديداً

بصـــدري.. زفــرت في عنف.. أخذت عدّة أنفاس متلاحقة لاهــثة.. أتبعتهم بنفس عميق للغاية.. حبسته داخلي.. وبينما أهــمّ باستئناف الغطس.. إذا بي ألمح أن بعضاً من الناس قد تجمهروا على الشاطئ.. لو يأتوا ها هنا ويساعدونني؟!!

ولكنّـــي لــن أنتظر.. الوقت يمر.. والمسكينة قد يفصلها عــن الحياة هذه اللّحظات الغالية.. كان الغيظ يملؤني.. بل القهر.. بل الغضب.. وأنا أعاود البحث والغطس إلى عمق أكــثر وأكــثر مــن السابق.. برؤية ضبابية أكاد ألمح قاع الــبحر.. أدور بعينيّ.. هنا.. هناك.. ولكن لا أثر البتّة لهذه المسكينة.. ساعدني يا الله.. ماذا أفعل الآن؟!

كنــت الآن أحــس دواراً أكثر وأكثر من المرّة السابقة.. والــنَفَــس داخل صدري قد نفد وصداع رهيب قد بدأ ينفذ إلـــى رأســـي.. لا أدري من أين بدأ اليأس المُقبض يتسرّب إلـــى نفســـي.. فـــي بـــطء وإرهاق شديدين اتخذّت طريق الصـــعود.. سواد شديد يحيط بي من كل جانب.. أردتُ أن أبكي.. أن أستغيث..



وبعـــد ألـــف ملـــيون سنة.. وبعد أن طفوت على سطح المـــاء.. كـــان الوهـــن يشـــملني كلّي.. الجمع الغفير يلوّح ببلاهة.. وأنا لا أستوعب ما يطلبونه مني..

أتُراهم أنقذوا الفتاة؟!

لكن مهلاً..

أظن أن...

كـــلاّ.. كـــلاّ.. لا يُـــعـــقـــل...

فـــي وســـط الجمهـــرة تماماً.. وكما لو كانت ترتفع عن الأرض قلـــيلاً.. وعلـــى الشاطئ البعيد للغاية الآن.. وحيث بر الأمان.. والأهل.. والناس.. والخـــلاّن...

وقفـــت هـــي.. شعرها أسود منسدل على كتفيها كاللّيل.. وجســـدها أبـــيض كالمرمر.. ترتدي غلالة شفيفة رقيقة من قمـــاش ورديّ لذيـــذ.. المـــاء يتقاطر عن جسدها وشعرها وغلالتها الّتي ترتديها.. في رتابة وملل..

ولا زالـــــت تـــــــلـــــــوّح..

أنت هناك.. بينهم.. وأنا ها هنا أبحث عن بقاياك؟!!

أنا ضعيفٌ للغاية الآن.. مهزومٌ جدّاً.. مُخدّر الإحساس.. يتمكّـــن منّـــي الدوار الأسود اللّذيذ.. حتّى إنّني توقّفت عن تلويح ذراعيّ بعد أن أدركني اليأس..

هـــيـــه..

أنــــتِ..

يــــا فــــتـــــاة..

أنتِ أيّتها الجميلة الفاتنة.. أرجوكِ..

تفصلني عن هذه الحياة..

جــذبــةٌ مــنــكِ..

فهل تنتشلينني؟!!!

نـــظــــــــــرات

أخيراً جلسْت بعد طول عناء.. أدلّك فخذيّ المُتعبَيْن وهلة أولـــي.. وفـــي الثانية بدأت أزفر في ضيق.. وبالرغم من بـــرودة الجـــو حولي إلاّ أن إحساسي بالتصاق الآخرين بي ملأنـــي بالضيق أكثر وأكثر كأي فتاة أخرى في مثل سنّي.. بـــل كأي أنثى على الإطلاق.. عن يميني سيدة في متوسط العُمر مُحجّبة مُرهَقة مُثقَلة بأعباء الزمن والزوج والأولاد.. وعـــن يســـاري شاب رثّ الحال ينزل عليه العرق غزيراً رغـــم الجـــو البارد.. عيونه زائغة لربما يبحث عن مستقبل ضـــاع أو هدف بعيد المنال.. كان شكله مُطَمْئناً إلى حدٍّ ما إلاّ أن ذلـــك لـــم يمنعني من محاولة جعل مسافة بيني وبينه أثـــناء الجلوس.. فإن لم أستطع فعل ذلك في الواقع.. يكفيني شرف المحاولة على المستوى العقلي.

مُســـليّةً نفسي أنا الأخرى.. لا جريدة معي ولا مُصحف كالآخرين.. بدأت أراقب تسرّب محطات المترو عبر النافذة

الواحـــدة تلو الأخرى.. كأنّها أيام تتقلّب على نتيجة مكتب.. كــل شـــيءٍ يمر.. خصوصاً الزمن.. الذي يبدو أنه اكتسب ســرعة غريـــبة وبطـــئاً.. ســـريع هو إذ تتبيّن ما بين ليلة وأخــرى أن شـــيئاً مـــا قد انتهى من حياتك.. اختفى.. كم أفـــتقدك يـــا أبـــي.. وهو سخيف البطء.. إذ يبدو الحال هو الحـــال لا تـــبدّل ولا منوال.. صباح الأحد هو نفسه صباح الأحد كل أسبوع، وتبدو أيام الثلاثاء كلّها ثلاثاء.. حتّى إنني أنسى التواريخ أحياناً.. وربما دائماً.

بـــدأت أحسّ برودة تلفح جانب وجهي، وحين تأكّدت أن الـــنافذة مُغلقـــة ومُجـــاورَيَّ (السيّدة والشاب) ما زالا على وضـــعهما كأنّهما منحوتان مع نفس المقعد.. تحصل عليهما مـــع الـــتذكرة الخاصّـــة بك.. لا زيادة.. لا نُقصان.. تلفتُّ حولـــي.. تأكدتُ أن زرّ قميصي الأخير عند العُنق لا يزال مكانـــه لـــم يُفك.. وإذ حانت منّي التفاتة جانبية حتى عرفت سبب إحساسي المفاجئ بالبرودة..

هـــو شيءٌ غريب عليكم.. ولكن هل تصدقون في الحاسّة السادسة؟!

كلاّ.. لن تفهموا ما أقصد..

لـــم يكن هذا التيّار البارد الّذي أحسسته سوى عيني شاب ســخيف ثبّتهما على وجهي.. أجل.. هذا ما حدث.. وهذا ما أحسســت بـــه.. أنا أحس إذا كان أحدهم يركّز نظره عليّ بمثل هذا التيّار البارد.. كأنّ لي عيناً جانبية.

غريبٌ.. أليس كذلك ؟!!

مـــاذا أفعل ؟! إنّ هذا الشخص لسخيفٌ جدّاً.. لماذا يُركّز نظـــره علـــيّ هكـــذا.. رغم أنّه يبدو مُحترماً للغاية.. أنيقاً للغاية.. إلاّ أنّ.......

أبـــتعد بنظري عنه.. أتظاهر أنّي لم ألاحظه.. أعود مرّة أخرى..

أوووووف.. ماذا يريد منّي هذا المعتوه ؟!!

إنّـــه لم يُبعد نظره عنّي لحظة واحدة.. هل أزعق عليه.. هل أتّهمه بمعاكستي.. سيُعرّضني هذا للإحراج.. خصوصاً أنّني وحدي الّتي ألاحظه..

أبدأ أحس العرق البارد يغزوني.. في آلية تمتد يدي مرّة أخرى للزر الأخير.. أتفحّص صدري.. إنّه ليس بارزاً إلى الحد اللافت..

نظـــرت إلـــى ملابسي.. إنّها طويلة كاسية لا تشفّ ولا

تلتصق..

ماذا يريد هذا الجبان إذن ؟!

لماذا اختارني أنا بالذات ؟!

إنّـــه يثـــير أعصـــابي إلى درجة غير محتملة.. هل أقف وأعطـــيه ظهـــري وأفـــوّت علـــيه فرصة مراقبتي.. ولكن الطـــريق لا زالـــت طويلة وأنا مُتعَبة للغاية بعد عمل طول الـــنهار.. والعـــربة شـــبه مزدحمة بحيث يغدو العثور على مكان آخر للجلوس من ضرب المستحيلات..

لو أنّه فقط يكفّ..

ينظر لشيءٍ آخر..

بـــدأتُ أتململ في جلستي.. أحسّ جفافاً في حلقي.. أحسّه يخترقنـــي بعيونه.. يلتهمني حيّة.. كرد فعل لا أكثر ولا أقل بـــدأت أحيط نفسي بذراعيّ.. فكاد الكيس الّذي أحمله يسقط مـــن يـــدي.. ارتبكـــت.. تنحنحت.. سقط الكيس.. هممت بالانحـــناء لالـــتقاطه في نفس اللّحظة التّي همّت فيها السيّدة عـــن يمينـــي والشـــاب عن يساري بالانحناء لالتقاط الكيس عنّي فاصطدمت رؤوسنا الثلاثة معاً..

حسناً.. اسخر منّي يا هذا كما تشاء..

لا بد أن منظري المرتبك هذا قد ملأ صدرك غروراً..

ولدهشـــتي أنـــا.. ظلّ وجهه ساكناً.. لا انفعال عليه ولا تغيـــير.. بالـــرغم مـــن أنّ أغلـــب مَنْ حولي ما بين مبتسم وضاحك.. إلاّ هو..

نظراته كما هي لم تتغيّر.. ووجهه جامد كتمثال الشمع..

لا بد أنّه أحمق..

مستفزّ..

فظيع.. إنّه فظيع !!!

أووووووف.. نطقتها عالية في زفرة حارّة ملتهبة لفتت نظـــر كل مَنْ حولي من جديد.. وهو ما زال على حاله كما هي.. و.......

مـــــــــــــــــــاذا ؟!!!

حدائق حلوان ؟!!!!

كدتُ أبكي الآن...

هذا المأفون جعلني أفقد محطّتي..

لقــد فاتتنــي محطــة نزولــي.. وسأضطر للنزول هنا والالــتفاف للجهــة الأخــرى.. وانــتظار عربة من الجهة العكسية تعيدني حيث أريد..

ولمّــا هممــت بالوقوف.. وقف هو أيضاً.. يا لــه من وغــد جريء.. هل سينزل معي أيضاً.. لو أنّه اقترب منّي لتكوننّ فضيحة مُدويّة له ولمن يتشدّد له..

فــي بطء وقف معه شاب يجاوره.. بهدوء سَحَبَه من يده مُتّخذَيْــن طــريقهما للباب.. كانت صدمتي بالغة.. لو تنشقّ الأرض الآن وتبتلعني.. إنه كفيف..

الشاب اللّطيف.. الجميل.. اللّذيذ..... كفيف..!!

كنــت قد اقتربتُ منه جدّاً لأنزل معه قبل أن يغلق الباب ســريعاً.. على وجهي ابتسامة كأنّها اتّساع ورحابة الدُنيا.. قلت لــه:

– اتفضّل حضرتك..

ابتسم في عُذوبة.. وتقدّمني بمساعدة صديقه أو أخيه..

أحسست تيّاراً بارداً في جانب وجهي..

إنّه المكان الّذي افتقد دفء نظرات الأعمى !!!

غـــــــارة

كانوا قد أعلنوا حظر التجوال..

وكانت الغارة قادمة لا محالة..

أصوات القنابل والمدافع صارت تصويرية.. زرت اليوم مستشـــفى للمصـــابين.. تأوهات الجرحى أشبه بغناء حزين علــى آلة موسيقية ذات وتر واحد.. تلك التأوهات الماجنة.. حســبت أنني سأصاب بالجنون لا محالة.. ما الذي يمنعني مـــن المضي قدماً وتجاوز ذلك الحد الرفيع الواهي.. ما بين العقل واللاعقل.. الأمر كلـــه لا يعدو كونه دعابة سمجة..

الســخف غلاف لكل ما حولك.. وعنوان مناسب لكل ما يدور لك وخلالك..

تسللت كفأر يائس لجحرى الذي أسكن فيه..

شقة من غرفة واحدة أقطنها وحدي أؤنسني وأأتنس بي..

أذكر طفلا صغيراً قابلته اليوم..

بـــتروا طرفيـــن مـــن أطرافه.. نشيجه يمزق نياط القلب المتحجر.. لم يكن يتألم.. فقط يسأل عن والديه..

لـــم يكن مسموحاً لنا بإضاءة النور.. فتنقلت ببطء شديد.. بين هلاهل وصناديق خشبية أتخذها عوضاً الأثاث..

ما الفارق بين أن تجلس على صندوق خشبي..

علماً بأنك في النهاية ستنام داخل واحد مثله..

وبين كنبة وثيرة فخمة متخمة..

ما دمت ستجلس..

وحدك !!!

رائحـــة ضيقة تعبق المكان وتجعلـــه مميزاً .. كأنه قبو فـــي قصر مهجور.. إذ ما طل عليه القمر بدراً سمعت منه عـــواءً كعـــواء الذئاب.. وفجأة ينطلق ذلك المسخ المذعوب ليقتنص فريسة جديدة..

الحياة مع بعض من الخيال.. شيء طريف..

ذلـــك الشاب الظريف الذي تزوج من شهر واحد لا غير وأتت عروسه ملهوفة تبحث عنه..

هل وجدته.. لا أذكر..

ترى أكان هو من أصابته تلك الشظية ففقأت عينيه..

أم الآخــر الذي أصابته في عنقه فأصابته بشلل كلي.. أم ترى لم تجده أصلاً..

خلعــت قميصـــي وعلقــته على الحائط.. الظلال تصنع شخوصـــاً وأشباحاً أتوهمها تعيش معي فأتحدث معها أحيانا وتحدّثنـــي هي أحياناً أخرى.. أضيء شمعة.. هي الوحيدة.. تبدأ الظلال تتراقص على وقع من موسيقى المعركة..

اليوم ــ ربما ــ سيغتالونك فترتاح..

أو ــ والعياذ بالله ــ يتركونك فلا تنام...

لو سمع أحدهم صوتك فأنت هالك لا محالة..

لو رأى أحدهم خيالك فلتتلُ صلاتك لأخيرة..

قد تصير الحياة أحياناً قاسية للغاية..

لا رحمة.. لا شفقة..

أنا لست خائفاً..

لست خائفاً أبداً..

فقط معترض وأتمنى دوماً لو أموت..

خلعت حذائي.. ووضعته برفق تحت الكرسي..

علـــى أطــراف أناملي كأني أحسب الأرض زهرة رقيقة وقفت..

علـــى الحـــائط أمامي.. كانت مرآة كبيرة بحجم شخص بالغ..

وقفتُ أمامها.. كانت عيناي قد بدأتا تعتادان الظلام..

فلمحت ما ظننته أنا...

في خفة بدأت أتحرك أمام المرآة..

أمســكت بفرشـــاة شـــعر.. ســرّحت شعري.. ساويت شاربي.. ونظمت نسق حواجبي..

أو هكذا ظننت أنني فعلت..

في تؤدة أغلقت عيناي وبدأت أدور حول نفسي..

فردت زراعي كأني فراشة تحلق..

أدور.. أدور.. في بطء شديد..

يالها من لذة.. لذة الدوران..

الانفعـــال تمكـــن مني.. فتسارعت لفاتي.. وعلت البسمة وجهـــي.. أفلتـــت منـــي قهقهـــة بسيطة ولكنني سرعان ما تداركت الأمر.. فاستأنفت الدوران بلا صوت..

إلى أن...

فجأة دوى صوت شديد..

لقـــد ســـقطت شـــماعة الملابس.. لا بُد أنها اصطدمت بذراعي.. في لحظة واحدة..

توقفـــت.. وارتميـــت أرضـــاً.. أخـــذت ألهـــث فـــي جنون..انفتحت عيناي عن آخرهما.. فُغر فوهي وتسارعت نبضات قلبي حتى حسبته في الطريق لمغادرة صدري..

في ندم شديد خبطت رأسي بالأرض في رفق..

لا بد أنهم سيعلمون أنني هنا..

لابد أنهم آتون لا محالة..

ظللت على وضعي هذا ما ظننته دهراً..

ثــم بدأت في بطء شديد أرفع رأسي.. أتشمم الجو حولي كحيوان بدائي..

اســتندت بــيدي على الأرض وبدأت أرفع جسدي حتى استويت واقفاً مرة أخرى..

نفضت يدي في عصبية..

لا زلت جاحظاً خائفاً ألهث..

تطلعت حولي في رعب..

تُري من رآني.. مَن سمعني.. مَن عرف بما حدث..؟

الآن فقط بدأت أتبين، وعلى ضوء الشمعة الوحيدة..

ضوءاً مماثلاً في الجهة الأخرى من الطريق..

شباكًا واحدًا..

أرى خلفه هلاهل أثاث وخيالات ظل تتراقص..

وضوء شمعة وحيدة يضيء المكان..

لا لهاث بعدما ألهث وقلبي سيتوقف حتماً..

فليقتلوني ويريحوني..

اختبأت خلف ساتر قماش..

نفخت برفق في ضوء الشمعة فوأدته..

وبدأت المراقبة..

رأيــت خــيالاً يماثلني في الحجم تقريبًا.. ولكنه أميل إلى الضآلة يتحرك..

حركة الخيال تتميز بالعصبية..

ويمكنني أن أجزم أنه يتطلع من الشباك الواحد كل لحظة وأخرى رغم أن الظل لم يقترب منه أبداً..

فـــي خــوف اتجه الظل نحو حائط لمحت التماعة ضوء الشمعة فوقه كأنه مرآة..

أمســك الظــل.. مـــا يـــبدو أنه فرشاة وبدأ يمشط شعره الطويل الذي يبدو لامرأة ما..

لا بد أنها وحيدة مثلي..

اتجهتُ نحو الشمعة وأضأتها ثانية..

التفت الظل ناحيتي..

في سرعة.. وضع الفرشاة جانباً ..

اتجه نحو ساتر قماشي واختبأ خلفه..

رفعتُ الشماعة عن الأرض وأسقطتها ثانية..

كررتُ المحاولة ..

أخذت صندوقاً خشبيًّا وألقيته جهة الحائط..

لا شيء..

توقفت وهلة استأنف اللهاث..

سـمعتُ صوت طرقات خفيفة.. ورأيت وجهاً يبرز من خلف الساتر القماشي..

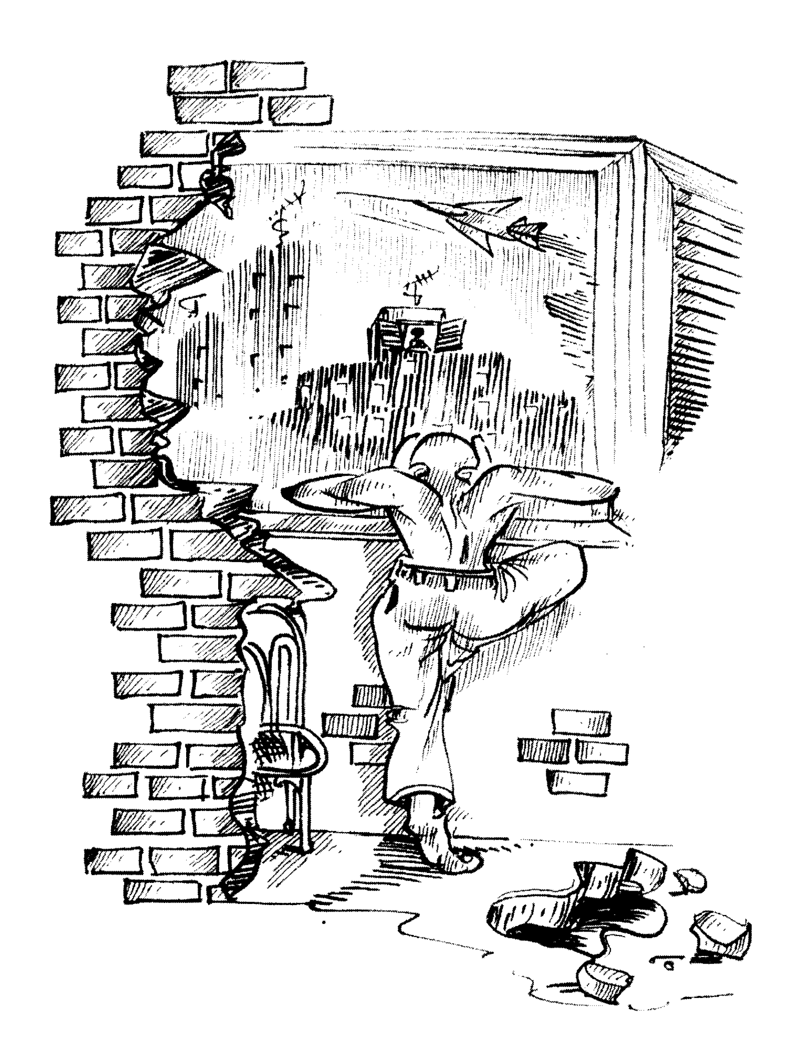
لوّحتُ بيدي في مرح.. لا إجابة..

اتجهتُ صوب الشباك.. لوحت بكلتا ذراعي..

على مضض وجدت يداً ملوحة..

مقـترباً سريعًا من حافة الجنون.. بدأت أبحث عن جهاز تسجيل أو راديو..

وحيـنما لم أجد.. اقتربت من الشباك أكثر فأكثر.. وبدأت أغني..



أجل.. أنا.. بدأت أغني..

وفجأة..

دقت صفارة الإنذار..

الأبـــواق تـــنعق.. وبعد قليل ستشنف أصوات الطائرات المحلّقة آذاننا..

كنـــت دومـــاً حين أسمع هذا الصوت اختبئ.. أبحث عن أي مكان آمن وأختبئ..

لا أعلـــم.. اليوم يبدو الصوت مختلفاً عن كل مرة.. كأنه موسيقى جديدة من نوع ما..

لـــم أختبئ.. بل لم أبتعد عن النافذة أصلاً ولم أتوقف عن الغناء..

اقتربت هي الأخرى..

بـــل وفتحـــت النافذة.. برغم الظلام.. وبرغم أن الطريق يفصـــل بينـــنا.. وبـــرغم البوم تنعق في الأفق.. حاولت أن أتبين ملامحها..

لم أستطع..

هي أيضاً..

اكتشــفت أنـــه لا فائدة.. أنها لا تقدر على رؤيتي وتبين ملامحي..

ودون سابق إنذار هبتّ الطائرات..

لم نحس بها.. ولكننا..

ودون ترتيب مسبق..

اتجهنا نحو أزرار الإضاءة..

أضأناها واتجهنا نحو النافذة..

في لهفة..

أمــــومـــة

إذا جـــاز لـــنا تقسيم الشرود لجاز لنا أن نقول إنها كانت نصـــف شـــاردة.. الجو حار مترب يصيبك بضيق لا سبب محددًا له.. عادت لتوها من عند أختها بالعباسية.. التي كاد زوجهـــا أن يرمي عليها اليمين لأنها لا تريد أن تطبخ لـــه بامـــية.. وابنها الصغير الذي لا زال في الحادية عشرة من عمـــره ضـــبطته يدخـــن سيجارة أمام مدرسته.. ناهيك عن ابنـــتها التي تتحدث تليفونيًّا حتى ساعات الفجر الأولى همساً ولمســـاً وتأوهـــا وغـــنجاً.. لـــم تنس بالطبع أن تبثَ أختها همومهـــا هـــي الأخـــرى.. تلك الأشياء التي تحدث.. أو لا تحـــدث.. فقـــط لتحيل حياتها ـــ بالذات ـــ إلى جحيم.. هي تـــدرك أن زوجها يخونها رغم أنها لم تقدر إثبات ذلك حتى الآن.. أيضاً هو لا يلبي نداءاتها الخفية حينما تنادي.. ولكن حيـــن يعـــنّ له هو أي حاجة وجب عليها فوراً التلبية.. إنها حـــياة بـــلا كلمـــات.. ولا همسات.. ولا لمسات.. زجرتها أخـــتها الكـــبرى مـــتهمة إياهـــا بـــتفاهة مشـــكلتها مقارنة بمشـــكلاتها.. ولكن مَنْ يحكم على ذلك.. مَنْ الذي يقول إن

هـذه المشـكلة تسـتحق والأخـرى لا.. هل هناك مقياس للمشكلات.. هل تأخذ المشكلات درجة من عشرة؟!! انفعلت أختها عليها عندما أخبرتها أن زوجها لا يحس بها.. ونعتتها بالمراهقة.. لذا كان الضيق بادياً عليها وهي تجر خلفها كياناً ضئيلاً يبلغ من السنوات أربعاً.

ــ ماما... أنا عايز مصاصة.

بخّت في وجهه..

ــ مصاصة إيه.. وهباب إيه دلوقت..

وجدت أن صوتها أعلى مما يجب، لطفل طلب مصاصة.. فانخفض قليلاً وهي تردف..

ــ خلينا نروّح البيت..

بالطبع لم يكن مَنْ تكلّمه يلتفت لها أصلاً عندما أردفت جملتها.. بل كان يتلّهى عنها بمحاولة لمس السور المجاور لهما.. والإشارة نحو قطة تموء في مجون ويداعب فتى وفتاة متحابين..

عاودت التفكير في مشكلاتها الخاصة.. عندما جذبها في إلحاح..

ـ ماما.. ودّيني الملاهي..

أرعــدت الســماء وبرقــت.. تقافــزت الشياطين حولها وتراقصــت وهي تهدر في صوت أقرب لانهيار أحد برجي مركز التجارة العالمي..

ـ ملاهي إيه.. وزفت إيه.. باقولك عايزين نروح.. إنت عايزني أضربك ولا إيه..؟

بــدأ يــدرك أن شــيئاً ما خطأ.. فشد يده في عنف تاركاً إياها.. جذبته بعنف أكثر نحوها ولطمته على كتفه.. زمجر بوجهه وبدأ يصرخ.. شاركته الصراخ في هيستريا وما عاد أحــد يميّز صوتيهما اللّذيَنْ إمتزجا في إزعاج مقيت.. بيده الضئيلة الحرة بدأ يحاول دفعها بعيداً عنه..

ـ بــاقولّك عايــز مصاصــة.. وعايز أروح الملاهي.. سيبيني..

كانــت اللطمــة من العنف على وجهه ومن القوة بحيث ســقط أرضاً.. وتوقف الناس حولها مذهولين.. مصمصات وشتائم واعتراضات لم تسمع أيًّا منها..

كــان الطفــل قــد انفجر في البكاء الآن وخمس خطوط

حمـــراء مســـتقرة علـــى خـــدّه المتورم.. مخاط أنفه يسيل كصنبور مفتوح.. صدره الصغير يعلو ويهبط ونظرة عينيه ملآنة بالقهر والغيظ.. في تحدٍّ صارخ لأمه.. انزلق ما بين قدمـــيها وانطلق هارباً لا يلوي على شيء.. اندفعت وراءه محاولـــة اللحـــاق به إلا أن المخادع الصغير فاجأ الجمهور كلـــــه بالهـــبوط عـــن الرصيف المرتفع والنزول في بحر الشـــارع المـــزدحم.. الســـيارة قادمة في سرعة من الجهة الأخـــرى.. جسد الصغير لا يكاد يبين من الأرض.. بعض النســـوة يطلقـــن صرخات تحذيرية.. بعض الرجال حاولوا الصراخ على سائق السيارة لتهدئة السرعة..

وحدث كل شيء.. بسرعة..

الأم تقفـــز ما يقرب من الأمتار الستة دفعة واحدة.. هي كل المسافة التي كانت تفصلها عن صغيرها الوحيد.. تتلّقفه بمنـــتهى الحـــنان.. تواصـــل الاندفـــاع لتـــتجاوز السيارة المـــندفعة.. تسقط وصغيرها أرضاً جاعلةً من جسدها حائلاً بيـــن جســـده الصـــغير وأسفلت الطريق.. تتعالى صيحات الفرحة من جمهور المتجمعين.. زغرودة.. هتاف..

لا تسمع من كل ما يحدث شيئاً.



تواصـــل احتضـــان صغيرها وتقبيله في كل موضع من جســـده وهو قد أخرسته الصدمة والموقف فجعلاه لا يصدر عنه صوت ولا حركة.. في هيستيريا تواصل الأم بحثها في جسد صغيرها و لو عن خدش صغير..

وعندما اطمأن فؤادها أن صغيرها سليم تماماً..

عندها فقط..

أحست بذلك العمود من النار في ساقها اليسرى..

نظرت جهة الألم المبرح..

وجدت ساقها تنزف في غزارة..

منظر بركة الدم تحتها أفزعها..

بدأ جمع من الناس يحيطون بهما في دائرة أضيق..

وبدأ بعضهم يشير إلى ساقها النازفة وبركة الدم..

احتضنت صغيرها ثانية..

قبّلْته في وهن..

ما عادت تحسّ بالألم..

وهي تسقط في خضمّ دوار لذيذ !!!

ما تيسر من الجنون

الصـــبي الصـــغير الضئيل.. لـــه جسد نحيل.. وضحكه يشبه الصهيل.. حالته تجعل الدمع يسيل..

فـــأبوه هو بوّاب العقار.. وأمه تخدم ببيوت الكبار.. في زمن أصابه السُّعار.. وأيام لا تخلو من الشجار..

أخـــته الكـــبرى المدعـــوة (إحسان).. تركتهم لحالهم منذ زمـــان.. أما أخوه (حسن) ففي (طرة) الليمان.. و(علي) في مستشفى للجنان..

وذا (إســـماعيل) الشـــحاذ المحـــترف.. الذي من جيوب الـــناس يغترف.. ولضباط الأحداث أبداً لا يعترف.. وجسده ثابت لا يرتجف..

لـــــه فترة لا يُسمع لـــه حسّ أو خبر.. أما أخوه الآخر (منتصـــر).. الـــذي حـــاول مرّة قبلاً أن ينتحر.. لولا تعلّق ملابسه بفروع الشجر..

عائلته لا تسر العدو ولا الحبيب.. هذا الصبي العجيب.. الـذي لـه مـن الحياة نصيب.. حتى لو كانت غالباً معه تخيب..

فقد صعد درج العمارة حتى السطوح.. ولما وجد الهواء ملطّف للـروح.. أخذ للكتاكيت بسرّه يبوح.. كلام قليل وكثير من النوح..

تـراءى لـه أن يغسل عن جسده الهموم.. فقرر أفضل الطـرق هي الحموم.. وبكم قميصه مسح أنفه المزكوم.. ثم خلع بعدها كل الهدوم..

وهكذا تبدأ قصتنا..

الشـعور الـناعم لقطـرات المـياه الساقطة على جسده خدّره..

استرخى واسترخت حواسّه فاستسلم لنوم ما حذّره..

وبدأت المياه تتجمّع تتشكّل تستطيل وتتمدّد..

ملأت السطح فأغرقته وبدأت أرجاء العمارة تتهدّد..

الصـبي ظل على حالته نائماً.. ومارد الماء على وجهه هائماً..

زار المارد شقة مفروشة في الدور الأخير..

وهي شقة مشبوهة تدار كما المواخير..

ففاجأ المارد رجلاً وامرأة على سرير الخطيئة..

استشاط المارد غضباً وأطبق عليهما في خطوة جريئة..

محمّلاً بالقرف استمر مارد الماء في رحلته لشقة تالية..

أهل الشقّة بالخارج والخادمة وحدها تسرق أوراقاً مالية..

أرجفها.. بللّها.. قاومته.. أغرقها.. أوقعها أرضاً..

أعادت النقود.. وبكت.. رقّ لحالها.. وبدأ يلوم بعضها بعضاً..

تركها وانصرف وما أحسّت به إذ ما زالت تنشج تنتحب..

وفي خطوات ناعمة من شقّة جديدة بدأ يقترب..

دخل وما وجد أحداً.. صورًا عارية ونهودًا بارقة على الحائط...

الأثاث غالٍ والأجهزة الحديثة.. الخمور.. وصورة رجل ساخط...

إنها الراقصة (تيتي) وهذه صورة زوجها المزعوم..

دمّر المارد أثاث الشقة وأجهزتها حتى غرفة النوم..

بدأت مياه المارد تتلوث.. والوسخ أدرك أطرافه..

إلا أنّه استمر في مهمته المقدّسة حاملاً لواء النظافة..

هذه شقّة تدار للعب القمار..

وتلك أخرى لا يسكت فيها الشجار..

هذا لص سارق مجرم أفّاق..

وذا محب بين جوانحه قلب خفّاق..

هنا يذكّر أهل البيت ربًّا لهم..

وفي ذا يعبد أهلــه شيطانهم..

أثقلت الهموم جسد مارد الماء.. وأدركه الضعف..

ودّ لــو مــا خــرج مــن صــنبوره.. ولمصائب الناس استشف..

وصل المارد أخيراً حتى باب العمارة..

حيث البوّاب يقوم بدوره في الإدارة..

يمسح السلم ويكنسه في رتابة وملل..

فلمّا رأى المارد الضعيف الساكن وقد أصابه الكلل..

سبّ سكان العمار والزمن الأغبر..

إذ في حياته ما رأى لهذا الماء أقذر..

أليس لديه عمل آخر يعملـــه غير التنظيف..

ألا يوجد في هذه الدنيا عمل خفيف..

كانت الشمس تتجه نحو الغرب حين لسعت الصبي نسمة باردة..

صـــرعته صـــدمة عـــريه وغرق السطح بالمياه الوسخة الراكدة..

نظر لصورته في أسى على سطح الماء القذر..

وأدرك أن لكل سكان العمارة عليه أن يعتذر..

بالطبع لم يكن يدرك ما فعلـــه مارد الماء أثناء غفوته..

ولم يعلم أنّه ما يراه الآن إلا بعد أن زالت سطوته..

أغلق الحنفية وبدأ مهمته في المرور على شقق السكان..

وهالــه ما تغيّر فيهم ولهم بل وأيضاً الجيران..

تُرى أيكون للوهم هكذا طعم كالحقيقة..

أتتبدّل أحوال الناس فجأة إلى الحال الرقيقة..

اشــترك الجمــيع فــي نــزح المــياه عن الأماكن التي أغرقتها..

ولم يلحظ أحدهم تلك الابتسامة المرتسمة على صفحتها..

ثـمـــالـــة

كنا مجموعة من الجلوس.. لم أدرِ ما الّذي جمّعنا..

هل نحن نحب الشيء ذاته.. أم ندّعي ذلك..

هل نعرف بعضنا البعض..

لا أدري..

روح غريبة تشملني الليلة..

أتـــأمّل الوجوه والأجساد حولي.. متراصّين على الأرض كـــنا.. هذا يحاول استكمال أوراق عمله غير المنتهي.. بينما استغرق الآخر في نوم ـــ ربما لم يكن عميقاً ـــ لكنّه نوم.. أمّـــا الأخرى الّتي اصطحبت طفليها فقد استغرقت في مهمة إسكاتهما وكأنما هي في مهمة قومية...

أمّا أنا...

ما الّذي جاء بي أنا.؟!

ما الّذي أفعله أنا.؟!

دعاني صديق.. حسبما أذكر.. ليخرجني من وحدتي...

كنت قد فقدت حبيبة قريباً.. ووظيفة.. وبكيت على وطن وتذمّرت من زمن أحياه...

إنّه جميل جدًّا.. مَـــن هـــــؤلاء؟!!

بل مَـــــن أنـــــا؟!!

وهنا بدأ العزف...

أنا حانق جدًّا...

النغمات تتصاعد...

غاضب أنا...

تـــتغلغل النغمات داخلي.. عضلات وجهي المتقلصة تبدأ تتراخى.. جسدي المشدود المتحفّز يهدأ...

إنّه عزف جميل جدًّا.. تشيللّو وفلـــــوت...

يتناغمان.. يتزاوجان...

يخترقانني...

أبدأ في الذوبان...

الله.. الله.. جميل جدًّا هذا...

تبدأ أصابعي في متابعة الإيقاع.. ثم ذراعي.. يتسارع نبضي مع تسارع الإيقاع.. يتباطأ مع التباطؤ.. يهتز رأسي...

فرقبتي.. جسدي...

بل كل جوارحي...

أغمضت عينيّ.. فراشة أصبحت.. أحطّ على هذه الزهرة.. أرتشف رحيق الأخرى...

رائحة جميلة تتسلّل إلى أنفي...

الجو جميل.. لطيف.. منعش...

أثمل.. أثمل.. أثمل...

أصير مادّة شفّافة تختلط بهواء المكان وتتطاير حولي (صول) و(فا) وربما بعضٌ من الـ (رى) والـ (مي) والـ (لا)...

أحب كل شيء...



أحب أيّ شيء...

أحب كل الدنيا.. وكل الناس وكل العالم...

أحب ذاتي...

وفجأة...

تتوقف الموسيقى ويكفّ العزف...

تظل عيناي مغمضتان لوهلة...

أظن هذا الأمر خدعة.. الموسيقى لم تتوقف...

العزف لم يكفّ...

مـــا هـــــذا..؟!

مـــا كـــل ذلـــك الـــحُـــمـــق..؟!

هـــيـــا اســـتـــمـــروا...

لـــم يـــحـــدث...

توقف جسدي كـــله عن الاستجابة للإيقاع...

بدأت أصابعي تتصلب وجسدي كـــله يـــتـــقـــلـــّص...

فتحتُ عيوني...

واستأنفتُ السخط والغضب.. بتلقائية...

من يوميات زهرة

أبشروا جميعاً فأنا لن أطيل عليكم...

فالعلم لديكم جميعاً ــ يقين ــ بأن عمر الزهور قصير...

أما أنا...

فزهرة بلدي.. أي أنني مصرية...

أما اللون.. فوردية...

والوطن؟ لا علم لديّ...

اليوم الأول (الميلاد):

اليوم توًّا قد فتّحت عيوني.. برعماً صغيراً كنت.. ولدتُ وســط إخــوة لــي زهرات متفتحات ناضجات.. قد سبقنني عمــراً وخــبرة.. لم أعرف من أين أتيت بتلك الذاكرة عن أشجار باسقة وأرض طينية خصبة وأفق واسع أزرق مزيّن بالســحب البيضاء.. كان مكان ميلادي غريباً.. إذ ولدت في مستشــفى.. كــلاّ.. كــلاّ.. لا تسيئوا فهمي.. لست أنا التي

ولدتُ في المستشفى.. ولكنّي حين وُلدتُ وجدت نفسي وسط باقـــة كبـــيرة راقـــدة بجوار امرأة بشرية يبدو عليها الوهن وآثـــار الإرهاق.. وفي تلك اللحظة سمعت بكاءً حادًّا هزّني هـــزًّا.. وعلى البُعد مني وجدتُ مهداً صغيراً به أجمل طفل رأيته في حياتي.. ولد توًّا...

مثلي.. ربما كان الطفل الوحيد الذي سأراه في حياتي..

أيضاً..

اليوم الثاني (التكوين):

بقيـــت فـــترة مـــن الوقـــت بتلك المستشفى لا أدري كم بالضـــبط.. حيث تعهدتني المرأة البشرية بالرعاية كما كانت تتعهد الطفل الرضيع.. ناهيك عن الودّ والحب والغَزَل الذي كنـــتُ ألقـــاه مـــن تلك المخلوقات البيضاء الأخرى اللائي يضـــعن ذلـــك الشيء الأبيض فوقهن ويدخلن الغرفة ما بين وقـــت وآخر للاطمئنان على حال المرأة.. إن الحياة لشيء رائع فعلاً.

اليوم الثالث (التجربة الأولى):

اليوم أحسست بخوف رهيب مفاجئ.. فقد أصبحت زهرة

متفـــتحة الآن.. ولكن لا خبرة لدي ولا معرفة.. كان الذبول والوهـــن قـــد أصـــابا بعضـــاً من أخواتي.. وكان علينا أن نودعهـــن كمـــا يجـــب.. كـــنّ يتحدّثن عن أشياء غريبة لا أعـــرفها.. عـــن شـــيء يدعـــى المشتل.. والأرض الأم.. والوطـــن.. تُرى ما هو شكل الوطن؟ لا بد أن أعترف أنني قـــد أصبحت جميلة الآن.. ربما أجمل واحدة في الباقة.. لذا فإن ذلك الكائن الذي عرفت أن اسمه شاب.. قد تسلّل خلسة و.. و.. و.. و.. و.. كـــلاّ.. لا أســـتطيع.. لا أستطيع أن أخبركم.. إنّه شيء فظيع.. شيء فظيع جدًّا...

فقـــد اعـــتدى علـــيّ.. و.. وأخذني وأنا في حالة إعياء شـــديد.. ويبدو أنني قد غبت عن الوعي قليلاً.. فلم أدرِ بأي مـــن الموجودات حولي.. وللمرّة الثانية.. أفتح عيوني.. لقد تغـــير شـــكل كل شيء.. الأشياء هنا لها ألوان عديدة.. أين اللون الأبيض الجديد.. لقد قطفني هذا الوغد.. ولا أعلم إلى أين أخذني.. ربما منزله.. أوووووووه.. كم أنا خائفة..!!

اليوم الرابع (لقاء):

ـــ أحبّك.. أعبدك.. أود لو أمضيت عمري خادماً لديك..

ــ أنت كاذب.. ها.. هاها...

وفـــي حـــركة سريعة خاطفة قدّمني لتلك الفتاة المرحة.. التي هتفت حال رؤيتي.. لا بد قد صرعها جمالي..

ــ أوووووه.. اللاّاااااااه.. روعة...

وانحنـــت علـــيّ في رقّة تتشمّمني.. ثم تُقبّلني.. وانتابتني ســـعادة غير معتادة غطّت على إحساسي بالجوع والعطش.. وفي دلال امتدت يد الفتاة إلى بتلاتي.. أمسكت واحدةً منهن بين إصبعين...

ماذا تريد أن تفعل هذه المجنونة...

كلاّ.. أنتِ.. يا آنسة.. ليس مسموحاً لك بأن...

كـــاد الفـــتى يبكـــي.. واعترته غصّة في حلقه حين وجد فتاته تهمّ بالعبث بي.. إن الشاب لرقيق جدًّا.. ولا أنكر أنّي سامحته على أخذي عنوةً هكذا...

ربما هذا الفتى هو الوطن كما قالت أخواتي...

ربما...

وأخذتنـــي الفتاة معها.. يا لها من دنيا فظّة قاسية تتقاذفني

أمواجهــا المتلاطمة.. كم أتوق الآن إلى المستشفى وأخواتي الزهــرات فــي باقــة الورد بجوار المرأة البشرية والطفل الباكي...

وفــي زهــرية جميلة وضعتني الفتاة.. وفي دقائق ذهب عنّــي الجــوع والعطش.. ربما أن الفتاة ليست بالسوء الذي ظننت...

اليوم الخامس (الحزن):

فــي غرفة نومها وضعتني الفتاة.. تحت إطار به صورة سـيّدة كبيرة في السن تشبه الفتاة كثيراً وشريط أسود معلَق بــأحد الأركــان.. كانت الفتاة تتوقف أمام الصورة كثيراً.. تــتحدّث معها.. تسألها عن بعض الأشياء ثم لا تلبث أن تبدأ فــي الــبكاء.. وكان هذا يبعث داخلي إحساساً شديداً بالكآبة والانقباض.. الفتاة تتساءل عن مكان أمها التي في الصورة طوال الوقت.. وتشكو لها حال الدنيا وقسوة الحياة...

ومَن سمعك يا أختاه...

كانــت تخــبرها أيضاً عن (أيمن).. الشاب اللطيف الذي أهدانــي لهــا.. ومــا بين الوقت والآخر كانت تنحني عليّ

فـتملّس علــى بتلاتــي فــي رقّة.. وتجعلني ألمس وجنتها الـناعمة.. البيــت فقــير متواضع ولا يُقارن البتــّة بمكان ميلادي...

كــان الوهن قد بدأ يتسل إليّ.. وارتخى عودي.. وزحف الذبول إلى أطراف بتلاتي.. ما هو ذلك الشيء اللعين الذي يحــدث لــي.. لماذا توقفت قدرتي على المرح والضحك.. أعــتقد أنّي فقدت رائحتي أيضاً فالفتاة كفّت عن تشمّمي منذ فترة طويلة...

الليلة.. مالت عليّ الفتاة...

ــ غداً.. سأقدّمك هدية لأغلى مخلوق عندي...

تســاءلت.. هل ستعيدني لــ (أيمن) مرّة أخرى.. وتنتظر أختاً لي أخرى لتحل مكاني..؟

إن الفتيات لا أمان لهن حقّاً...

اليوم الأخير (الموت):

العديــد والعديــد مــن الصــخور البيضــاء العالية عن الأرض.. كلمــات كثــيرة محفــورة علــى رخامات تقف مســتقيمة ملــتحمة بــالأرض.. كانت الفتاة تلبس الملابس

الســوداء وتمســكني فــي يدها بوجل شديد.. أخذت تتمتم بكلمــات لم أفهمها.. ثم بكت.. بللّت دموعها صفحة بتلاتي التي صارت مكرمشة الآن...

هونّي عليك يا فتاتي.. لا شيء يستحق...

لكن.. لدي سؤال وحيد لك...

تُــرى ما هو الوطن؟!!

أهــو هــذا يا تــُرى..؟!

(نجلاء).. يا فتاتي العزيزة.. كفكفي دموعك...

أرجــوك.. إن دموعك لقاسية للغاية وأنا ما عدت قادرة على التحمّل كالسابق...

كمــا يلــيق بزهرة كهل عجوز.. وضعتني (نجلاء) في رفــق.. منتهى الرفق على قبر أمها.. ودَعتْ دعوةً أخيرة.. ثم انصرفت.. الوداع يا (نجلاء).. الوداع يا حبيبتي...

مســتلقية على ظهري.. منتظرة اللحظات الأخيرة.. هبّت ريــح فأســقطتني.. بــدأ ضياء الشمس في الذبول.. أمامي جــرى كلــب خلف قطّة وهو ينبح.. تسلّقتني حشرة فلم أُبْدِ

اعتراضـــاً.. بـــدأت بعض ذرّات من تراب تعلوني.. للمرّة الأولى أتذوّق طعم الرمال.. طعم الأرض...

مرّت لحظات بطيئة ما عدت أدري ما يحدث لي...

تمنيّت لو أنّي عرفت...

أو لربما عرفت.. أين الوطــــــــن!!

طـــفـــولـــة

يرغــب لـــــه والده أن يكبر فيصبح مهندساً كبيراً.. أما الأم فــتريد لـــــه أن يكــون طبيــباً شهيراً ليعالجها عندما تمــرض.. أمــا هــو فــيريد أن يصير لاعب كرة قدم من النجوم.. ربيعه العاشر لم يتمه بعد.. ولكنه يعرف أن والده لا يقــبل منه سوى أول الفصل.. لا يسعه أن يكون الثاني.. والــده سيغضـــب كثيراً إذا كان الثاني.. والدته تشفق عليه كثيراً ودائماً تتهم والده بأنه سيكون السبب في تعقيده.. ليس مـــن الضـــروري أن يكــون الأول.. ماذا سيحدث لو طلع الثاني.. ولكنه هو لم يفكر.. ولم يكن يريد ليجرب...

الامـــتحانات قريـــبة.. ولكن اليوم هو نهائي الدوري بين شـــارعهم وشـــارع مجـــاور... إنه يوم البطولة.. وسيكون كعادتـــه الـــنجم الذي يرجح كفة فريق شارعهم.. لن يسمح للآخرين بالفوز مهما كلفه...

ماذا يفعل الآن...

والـــده لا يوافق على لعبه في الشارع.. دائماً يخشى أن تكســـر لــــه ذراع أر رجل.. أو تصدمه سيارة.. أو يسقط في بالوعة.. أو...

ازدرد ريقـــه فـــي صـــعوبة متخيلاً المصير المظلم في الخارج...

ولكـــنه لـــن ييأس ولن يلين.. كما أن كل تلك المصائب السوداء لن تحدث يوم نهائي البطولة بالذات...

لـــو أن والدتـــه فقـــط بالمنزل لاستطاع أن يتحجج بأي حجـــة.. أو حـــتى لأخـــبرها بالحقـــيقة.. ولكن حينما تحين المـــباراة.. ســـيكون والـــده بالمـــنزل.. إن والده ينام فترة العصـــر.. وأمـــه تظـــل ملازمـــة الغـــرفة حتى لا تحدث ضوضـــاء.. مـــاذا لـــو أنـــه تسلل في خلسة.. المباراة لن تســـتغرق وقـــتاً كبـــيراً.. الخـــروج سهل.. ولكن ماذا عن العودة؟!!

شـــيء ســـهل.. هو الآن كبير ويستطيع استخدام المفتاح لفتح الباب.. وهو يعرف أي مفتاح هو مفتاح الباب.. ويعلم أن والدته تضع نسخة احتياطية منه في أحد أدراج الدولاب الموجود بالصالة...



سيأخذ المفتاح.. يخرج.. واحتياطيًّا سيلبس ملابس الكرة تحـــت ملابـــس عاديـــة زيـــادة في الحذر.. يلعب المباراة وينتصـــر.. يعـــود.. يفـــتح الباب بالمفتاح... يدخل غرفته مســـرعاً يجلـــس على مكتبه مدعياً المذاكرة.. يستيقظ والده ولا يدرك شيئاً.. .

يا لها من خطة محكمة...

يا لـــه من ماكر صغير.. تماماً مثل اللعب...

شبك ذراعيه خلف رأسه سعيداً بنفسه...

بـــدأ يهـــز الكرســـي برجلـــيه إلى الخلف والأمام وذهنه مشغول بتخيل كم الأهداف التي سيسجلها في المباراة...

ثم...

اخـــتلّ توازن الكرسي.. وسقط للخلف في جلبة عنيفة.. وطار في الهواء وبعنف مماثل سقط على ذراعه...

آآآآه...آآآآه.... آآآآآه...

صـــراخه يجـــذب والدته فدخلت الغرفة مسرعة.. لتجده مكوماً بالأرض.. يحمل ذراعه بالأخرى ويتأوه...

وحدث كل شيء بعدها بسرعة...

وعندما جاء والده مسرعاً للمستشفى وهم يضعون ذراعه المكسورة في الجبس.. كان غاضباً للغاية.. وزعق فيه بشكل لافت جدًا...

ـ يعني رجعت تلعب كوره تاني وتسيب مذاكرتك...

كان يريد أن ينفي التهمة عن نفسه ويخبره أنه لم يفعل.. إلا أن الألم والإحباط منعاه من الرد سريعاً.. وذهنه مشغول ـ لا زال ـ يتخيل أحداث المباراة التي لن يلعبها...

غمغم.. في غيظ...

ـ أيوه.. آه... كنت بالعب كوره...

ثم أردف في تحدٍّ.

ـ فيها حاجة دي يا بابا؟!!

نظر والداه كل للآخر مصعوقين ...

ولكل منهما أسبابه...

بينما استقرت إبتسامة منتصرة على وجهه !!!

رجل سعيــــد

زقزق طائر هذا الصباح...

ما لي أراكم تتعجبون هكذا؟!!

أتســتنكرون أن تــبدأ قصّــة ما بزقزقة.. أيجب أن تبدأ جمــيعاً بامــرأة تشكو أو رجل يعاني.. أأصبحنا لا نتذوق سوى الآلام.. ولا نتفاعل إلاّ مع المصائب والآثام.؟!

المهم في الأمر الآن.. أن الجو كان لطيفاً للغاية.. وكنت ســعيداً جداً.. متفاعلاً مع الطائر المزقزق بدأت أصفّر لحناً أعشــقه واضعاً يداي في جيوبي رغم خلوهما وهو أمر جيد للغايــة وإلاّ مــا كنت وجدت مكاناً أضع فيه يداي.. بدأت أتقافز في خطواتي وأنا أقترب من محطة الأتوبيس.. ركلت حَجَرًا صغيرًا ورأيته يتدحرج في مرح جهة حائط المدرسة المشــروخ الــذي أمرّ بجواره الآن مراقباً الأولاد السعداء بأحمــالهم الثقــيلة الجمــيلة فوق ظهورهم الضعيفة الرائعة داخلين متسارعين متشوّقين لبدء يوم آخر من أيام التحصيل والفائدة العلمية اللذيذة في فصولهم غير الواسعة وأصدقائهم

العديديـــن الذيـــن يجـــتمعون معهم في المكان ذاته مشيعين الـــدفء وأواصـــر الـــترابط والتلاصق ويخلقون بينهم جوّاً حماســـيًّا تنافســـيّاً شريفاً حتى يصبحوا رجال الغد الأقوياء الأصحّاء المهمّين...

أخيراً وصلت لحظة دخول الأتوبيس المحطة...

فتلاحمـــتُ مـــعَ الجميع في تناغم مدهش للصعود واتخاذ أماكنـــنا فـــي الجلـــوس بإيثار بالغ مفضّلين علينا كل امرأة وكبـــير وعاجز بل والأطفال أيضاً.. الكل مبتسم وسعيد.. لا نشـــعر بحـــرارة الجو أو العرق الغزير ذكي الرائحة الذي ننضحه كزهرات مبلّلات بالندى وقت الشفق...

فـــي هـــدوء وسرعة وصلت.. فتسابق الجميع في افساح الطريق لي للنزول بينما تمنّى لي السائق السلامة والأمان.. فرددت عليه بالمثل.. وودّعني ركاب الأتوبيس في عواطف جيّاشة ملوّحين لي من خلف الزجاج...

ماســـحاً دمعـــة تأثّر صعدت دَرَجات الشركة التي أعمل بهـــا.. حيـــث تأخرت حوالي ربع ساعة عن موعد امضاء الحضـــور.. كنـــتُ أحـــسّ ندمـــاً شديداً على ما اقترفتُ.. بالشـــركة اســـتقبلني المديـــر بنفســـه واضعاً يده على كتف الموظـــف المكلـــف بالإمضـــاء.. اعـــتذرتُ لـــه في شدّة

واخـــلاص.. فأخبرنـــي أنـــه قلـــق عليّ قلقاً بالغاً وآثر أن ينتظرنـــي بنفسه حتى يتأكد من وصولي بالسلامة.. شكرته علـــى حـــنانه الأبـــوي وذهبـــت لمكتبي.. ربّت على كتف الموظـــف وتـــنهّد تنهـــيدة دافـــئة منطلقاً إلى مكتبه بدوره وممارســـاً لمسؤولياته الجسيمة ــ وفّقه الله لعلو شأننا وشأن الناس أجمعين...

كـــان يومـــي جمـــيلاً حـــافلاً كالعادة بخدمة المواطنين والعملاء الرائعين...

في طريق العودة ممنيّاً نفسي بالبيت اللذيذ الذي افتقدته.. ســـارعت بالصعود إلى شقتي ذات الدم الخفيف فوق سطوح تلـــك البناية المتهالكة الصامدة في إباء وشمم.. فتحت الباب وكانـــت بانتظاري زوجتي الحبيبة رائعة الجمال في قميص نوم شفيف خفيف تفوح منها كل الروائح الطبيعية المحببة.. وبعـــد أن أكلـــنا طعـــام الغذاء مع أولادنا الأعزاء.. تأهبت للـــنوم قلـــيلاً فـــترة القيلولة.. وأثناء قيامي لم ألحظ الشيء الضئيل الذي سقط مني...

دخلـــت الحمّام.. فوجئت بالسقف المشروخ.. زعقت في صوت عالٍ:

ــ إلحقي يا وليّة.. الحمّام خلاص هايقع علينا...



كانــت الــرائحة فظــيعة.. والماء مقطوعاً.. والمجاري خــربانة.. خرجــت محمّــلاً بالســخط والضيق.. لاحظت الحرارة الخانقة والجو الرطب السخيف.. صرخت ثانية...

ــ أمّال فين الشاي يا وليّة.. خلّينا نتخمد شويّة ونريّح...

وحيــن هممــت بــالجلوس علــى الكرســي ذي الرجل المكســورة سقط بي في دويّ شديد.. فأخذت أسبّ وألعن.. أمســكت بالجريدة وهالني هذا الكم من التفاؤل والسعادة في الصفحات الأولى للجريدة الرئيسية...

أيُعقــل أن يكون الخبر الرئيسي ميلاد طفل لزوجين بعد عشر سنوات من زواجهما...

أيــن أخــبار الحــروب والكــوارث ومشــاكل الشرق الأوسط...

كم فلسطينيًّا مات اليوم.؟!

كم عراقيًّا.؟!

كم حرباً قامت في أرض عربية أو إسلامية.؟!

كــم مرضــاً اكتشفوا أمس.. كم مشكلة اقتصادية.. و.. و..؟!

يا إلهي.. أهو حلم هذا.. أم.. كابوس...؟!

لـــم يكـــن عندي تليفزيون.. ولكني أشعلت الراديو.. كلها تذيـــع أغاني ونكت وبرامج فكاهية ومرحة.. لا توجد إذاعة إخبارية.. كل ما حولي غير حقيقيّ في سخف بشع...

وحيـــن هممـــت بـــالعودة مرّة أخرى.. فوجئت بزوجتي اللعيـــنة تقف قبالتي.. وفي يدها شيء صغير للغاية.. قدّمته لي في سعادة ومرح بالغين...

بحدقتين ضيّقتين تناولت منها الشيء الصغير وأعدته إلى مكانـــه الصـــحيح فـــي جسدي.. مجرّد اختراع لذيذ رائع.. جهـــاز يبث جرعات محسوبة من عقارات هلوسة مخلوطة بطريقة معيّنة داخل أجسادنا وبصفة دائمة...

آااه.. آاااااه....

الآن اســـتعدت إحساســـي بكـــل مـــا هو لذيذ.. ورائع.. حولي...

خيـانـــــات

هـــــي:

رن جرس التليفون.. بعد نزوله مباشرة...

كان الصوت العميق من الجهة الأخرى.. يدغدني...

يتوغل داخلي.. ويُداعب كل حواسّي...

حبيبي...

أنا هاهنا بانتظارك...

ألا تأتي فتنقذني من هذا الهوان..؟!

ها هو قد نزل.. الملعون.. زوجي...

ســتركب ــ أنــت ــ ســيارتك ــ حبيبــي ــ وأجــدك أمامي...

تمر الدقائق واللحظات.. الثواني والساعات...

يرن جرس الباب.. تفتح.. يدخل الحبيب...

تطلق لنفسها العنان...

تلقـــي بنفســـها فـــي الأحضـــان الدافئة.. قُبلة هنا.. قُبلة هناك.. همس ناعم في الآذان كأنه الجنون...

أنامله المُدرّبة تتوغل داخل جسدها المُحتاج...

تستسلم له...

كأنها تتعلم منه كيف تصبح امرأة...

تـــتركه يعبـــث بها.. يطلق أحاسيسها إلى أبعاد لم تصل إليها من قبل...

يستنزفها...

ويستنزف اشتياقها لــــه ولكل ما يفعله...

تغرق في الغيبوبة اللذيذة التي أحضرها معه هذا الحبيب العجيب...

تشعر معه بأنوثتها الكاملة...

كم أحبّك يا هذا...

كم أحبّك...

وأعشقك !!!

هــــــو:

رن جرس التليفون المحمول.. بعد نزوله مباشرة...

كـــان الصـــوت الرقـــيق مـــن الجهـــة الأخرى.. يمزّقه أشلاءً...

ريقه يجفّ...

وتتسارع نبضات قلبه...

تلك الحوّاء البكر..الجسد البضّ النابض بالحياة...

كم جميل أن يشنّف أذنيه صوت أنفاسها...

أن تخترقه تنهّداتها...

الآن تسمح لـــه بالتلاقي...

فيغيّر وجهة سيارته وينطلق إليها...

فرحة الطفل ترتع داخله.. بهجة العيد يحسّها...

الآن يمكنه أن يستأنف دوره كرجل.. يُحِبّ...

ويُحَب...

يرن جرس الباب.. تفتح.. يتلقّفها بين أحضانه...



يهمس في أذنها...

أحبّك...

ثم قبّل الجلد الناعم الأملس هناك في رقّة...

تتأوّه...

ويتثنّى جلدها في متعة...

وإغراء...

لا يملك أن يقاومها.. فيندفع وإيّاها إلى الداخل دافعاً الباب بقدمه.. يغلقه...

تُرى أتكون هذه هي الجنّة..؟!

ما الفارق بين هذا الجسد الناريّ.. وأجساد حور العين.. جسده كله ينبض كقلب كبير...

ولحظة بعد لحظة.. يفقد وإيّاها إحساسهما بكل ما يدور حولهما في العالم...

لا توجد امرأة إلاّ هي...

أوّاه يا جسدي المكدود...

أين كنتِ يا حبيبتي.. منذ ولدتني أمّي؟!!

همـــــا:

على مائدة الإفطار...

لا زالا...

سألته بعد أن أفاقت من تأمّلاتها السابقة...

ــ سرحان في إيه؟!!

أفاق من شروده...

وانتفض كأنما ضُبط لتوّه متلبّساً...

ــ إيه؟!!.. فيه إيه؟!!

نظر لها بلا مبالاة...

واستــأنف مـــرّة أخرى.. تأمّلاته.. عن جرس التليفون.. والـــباب.. والحبيـــبة.. التـــي تجعلــــه يحـــس.. برجولته الكاملة!!!

عيـن حمـراء.. دامعـة

كـــان الوقـــت عصراً.. والحر قائظ.. وكنتُ في طريقي لـــ...

لـــ.. لـــ.. لا أذكَر...

ما أكثر ما تخوننا ذاكراتنا هذه الأيام...

وربما غير الذاكرات أيضاً يخون...

وإذ أنـــا أفكـــر في الڤيديو كليب الجديد الذي رأيته للفنانة (هادية)...

وبطولة كرة القدم المُشفـــرّة القادمة...

وكيفـــية تدبـــير المبلغ اللازم لشراء كارت المحمول قبل انقضاء المُهلة الممنوحة...

إذا بي أفاجأ برجلين يتشاجران على مدخل حارتي...

كان شكلهما غير مألوف بالنسبة لي...

يلقـــي أحدهمـــا باللوم على الآخر.. يسبّه الثاني.. يدفعه

الأول في صدره فيتراجع الثاني للوراء.. يتهم الثاني والدة الأول بتهمة لا يسعنا نفيها أو تأكيدها من وضعنا الحالي.. ذكّره الأول باحتياجه للتربية.. ينقضّ الثاني على الأول يخنقه متسائلاً إن كان بوسعه القيام بهذه المهمة؟!.. إلا أن الأول ـ الذي يبدو أشد بنياناً ـ يدفع الثاني مرّة أخرى.. موجهاً له لطمة هائلة على عينه.. التي صارت الآن حمراء بلون الدم.. دامعة كأنه يبكي من عين واحدة...

وقبل أن يتطور الأمر أكثر من ذلك.. كانت جموع الناس المتجمهرة قد قامت بدور الدرع البشري الواقي ليفرّقوا ما بين المتشاجرين...

عدد رهيب من البشر لا تدري من أين أتوا.. أو كيف...

حتى إنني فقدت مكاني المميّز لمتابعة الأحداث واقتربت من قبيلة النمل التي تفجّرت وانبثقت من العدم...

ما عدت الآن أميّز أيّاً من المتشاجرين...

ـ الناس ما بقتش طايقة بعض...

ـ باين التاني ده حرامي...

ـ هي دي آخرة الظلم والإفترا...

ـــ بس التاني ظالم برضه.. شفت ضربه ازّاي..؟

ـــ همّه الاتنين ظالمين...

كنــت أود أن أدخل أكثر.. علــّي أرى أحد المتشاجرين وردود أفعالهما على ما يثار بشأنهما...

ـــ إمشي عِدِل يحتار عدوّك فيك...

ـــ شــكلهم همّــه الاتنين حرامية ومتفقين على التمــثيلية دي...

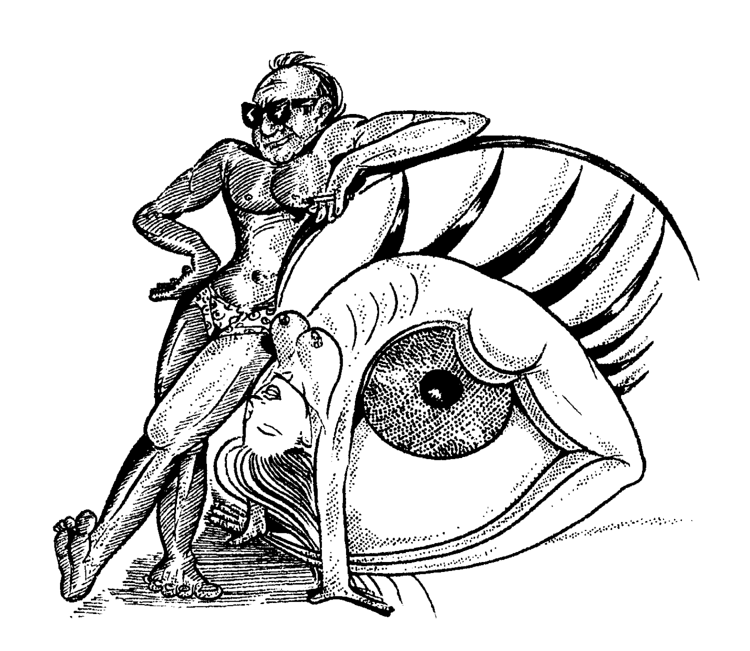
ـــ عــدو إيه يا أخي المفروض إن كلنا مصـــريين.. كلنا إخوات.. عدو إيه وبتاع إيه..؟!

ـــ أنــا عــارفهم.. دول اتنين ميكنيكية في دكانــين قدّام بعض.. ومتعوّدين يتخانقوا ...

ـــ الظاهر الأولاني ظبط التاني بيخونه مع مراته...

ـــ أستغفر الله العظيم...

أظننـــي وصــلت إلى وسط الجمهرة.. تفحصت الوجوه حولي في دقة.. باحثاً ولو عن عين حمراء.. أو دامعة...



وإذ وجـــدت أن موقعي بالوسط تماماً ينطوي على بعض الخطـــورة.. فقـــد يشـــتبه في أن أكون أحد المتشاجرين.. وحيـــث إن الأمـــر الآن قـــد صار لا يعنيني.. فقد اتخذت طريقـــي مخترقاً الجمع إلى الخارج.. من الجهة الأخرى.. عندما سألني أحدهم في لهفة...

ـــ صـــحيح واحـــد انضرب مطوة واتنقل المستشفى دمه سايح؟!

ـــ هوّه بجد واحد فيهم كان معاه مسدس ميري..؟

ـــ شكلهم مدمنين مخدرّات.. صح؟!

لم أردّ.. فقد بدأت أحسّ بالاختناق...

كـــأن الـــناس يعتصـــرونني.. قاومت رغبة ملحة في أن أصرخ...

أو أبكـــي.. رائحـــة عـــرق الـــناس تغمرني في لزوجة سخيفة...

وبعد ما ظننته عمراً يمر.. تحرّرت من قيد المجموع...

وصرت فرداً حرّاً ثانية...

يا لها من راحة...

واصلت طريقي.. لا أذكر إلى أين...

تتناهى إلى أسماعي كلمات مثل...

ألف جنيه.. الإرهاب.. المخدرات.. أمريكا.. اغتصاب.. التطرف الديني...

كل هذا نسيته بعد ذلك...

ولكني أبداً لن أنسى ذلك الوجه الذي واجهته لثانية...

فسرّى داخلي رجفة بالغة...

بعينه الحمراء.. الدامعة !!!

يـوم هـادئ.. جـدًّا !!!

جاء صباح ذات يوم فاستيقظت.. كالعادة المنبه يجاورني مـتعطّلاً.. سـاعة يـدي لا أرتديها.. الجديد في الأمر أن الأصـوات بالخارج ما سمعتها.. وبينما أنا على حالتي تلك مـا بيـن نـائم ومسـتيقظ لـم ألتفت.. كان لذيذاً أن أحس بالقطـرات الـباردة للماء تنعشني وهي تزيل عنّي كل أثر للكسل والخمول.. الدش ماؤه غزير بغرابة غير معتادة.. لا بـد أنهـا الإصـلاحات التـي كانوا يتحدّثون عنها.. البلاد أحوالهـا تنـتقل إلى مرحلة أفضل.. هكذا ظننت لمجرّد أن المـاء توفّر هذا الصباح دون عناء.. حضّرت لنفسي كوباً من الشاي الثقيل المر.. تجرعته في سرعة...

أين ساعتي إذن؟!...

لا بد أنني تأخرّت.. لم أجدها.. لا يهم...

العمـارة ساكنة صامتة بطريقة مريبة.. لا توجد أصوات لأبـواب تفـتح أو تغلق.. جيران يتبادلون السباب.. خادمة

تــتقافز علـــى الدرجـــات.. زوجـــات يشـــكين هموم الدنيا والأزواج والزمن الأغبر...

لا صوت..ولو الهمس؟!!

يـــا الله.. هذا الهدوء مريح للأعصاب فعلاً...

ألا يمكن أن تصبح كل أيامنا كذلك..؟!

لا أظن...

كانت المفاجأة المذهلة من نصيبي حين وصلت الشارع.. الـــذي كـــان خالـــياً تماماً.. لا سيارات.. لا أتوبيسات.. لا بشر.. لا حيوانات.. لا شيء البتة...

لا بد أنني أحلم.. لا بد أنني لم أستيقظ بعد...

التفاصـــيل حولـــي دقـــيقة تستحيل على الحلم.. ووعيي متحفز يتنافى مع النوم...

على البُعد سيارتي الحمراء الصغيرة المركونة أمام محل العم (صبحي) المفتوح...

المفتـــــــوح؟!!!

إذا كـــان المحـــل مفـــتوحاً.. فـــلا بـــد أن عم (صبحي) بالداخل...

عبرت الطريق بسرعة غير مبالٍ فلا توجد سيارات على الإطلاق...

دخلت المحل في لهفة.. عم (صبحي).. يا عم (صبحي).. لا أحد يردّ...

بدأت أشعر بالقلق يغزوني.. واستجمعت شجاعتي ودخلت المخزن متوقعاً أن أجد جثّة العم (صبحي) ممددة على الأرض غارقاً في دمائه...

منظر نتوقعه.. حين نجد المحل مفتوحاً.. ولا أحد يرد!!!

إلا أن توقعي خاب سريعاً.. إذ لا يوجد أحد هنا بالفعل؟!!!

خرجتُ.. فوجئت أن كل المحال مفتوحة.. كالمجنون دخلتها الواحد تلو الآخر...

لا أحد.. فقط لا أحد...

كان العرق إذ ذاك يتصبب مني غزيراً.. ودقّات قلبي تجاوزت الألف...

ماذا حدث لهم جميعاً.. أين ذهبوا..؟!

ركبت سيارتي وعزمت على زيارة مكان عملي.. قطعت الطـريق فـي لحظات إذ لا يوجد غيري يستقل سيارة.. إلا أن ذلك لم يضف لي جديداً...

الشركة مفتوحة خاوية...

الآن أدركـت أنني أحلم.. إذ لا يعقل أن يتركوا الشركة هكـذا.. هـناك الكثير من الأوراق الهامة والسندات المالية والشيكات وكل ما في الأمر أنني سأقرر أن أستيقظ...

أغمضت عيناي.. جمعت إرادتي...

حسناً.. سأستيقظ... الآن !!!

فتحت عيناي...

لا بـد أننـي مسـتيقظ الآن.. وسـأجدني لا زلـت في السـرير.. إلا أننـي فوجئت بكوني واقفاً في ردهة الشركة أمام غرفة المدير المفتوحة على مصراعيها...

لا بد أنها دعابة سمجة...

أخرجـت من جيبي الولاعة.. وبدأت أراقب لهب شعلتها المتراقص...

في تؤدة.. ودون أن أهتز.. قربت أصبعي حتى أحسست بالألم البشع للحرق وشممت رائحة جلدي المشوي...

لا وقت للهزار الآن...

أنا مستيقظ واعٍ وفي كامل قواي العقلية...

إذا استثنينا حادثة حرقي لأصبعي تلك بالطبع !!!

أيّ عبث يكون هذا إذن؟!

أمامـــي تمامـــاً مكتب المدير.. بلا مدير.. والشركة.. بلا موظفيـــن.. والشـــوارع بـــلا مواطنيـــن.. أحسست بطرافة ممـــتزجة بالســـخافة.. إلا أن هذا لم يمنعني من فعل شيء تمنيـــته دومـــاً.. تقدمـــت فـــي بطء.. وعلى كرسي المدير جلست...

هكذا !!!! أجل كما يليق بمدير عام...

يـــا لـــــه من كرسي وثير يا سيادة المدير.. يا لـــه من مكتـــب كبـــير يـــا سيادة المدير.. رجعت بالكرسي خطوة للوراء ورفعت ساقيّ لأضعهما فوق المكتب...

وبدأت أقهقه..

أنا.. المدير !!!!!!

وفـــي صــوت عالٍ صاخب.. سقط الكرسي إلى الخلف وتكوّمـــت وراءه ولا بـــد أنّي سمعت مفصلاً هنا ينخلع أو عضـــلة هـــناك تتمزّق.. أظن أن للمديرين قدراتهم الخاصة حتى لا يتمزّقوا كل مرة يجلسون فيها على كرسي كهذا !!!

مـــاذا أفعل الآن؟! اليوم أجازة إجبارية على ما يبدو.. لقد تـــركوا لـــي الدنـــيا مـــدّة يوم واحد فماذا أنا فاعل به؟! كم الساعة الآن.. لا أعرف...

أظن أني جائع فأنا لم أفطر بعد...

نزلت من الشركة سعيداً بوقتي الخالي من الالتزامات...

دخلت مطعماً أظنه فخماً.. بالطبع لم أجد أحداً فيه.. وفي ثقـــة دخلت المطبخ باحثاً عن شيء يؤكل.. لم يكن هناك أيّ شـــيء مُعدّ.. أحسست بالكسل.. غادرت المطعم.. أحسست بالشبع.. لم آكل...

الجـــو حـــار خـــانق.. لا أحد يراني.. خلعت ملابسي.. خلعتها كلها...

يـــا لـــــه من إحساس.. أنا عارٍ الآن كيوم ولدتني أمي

وسـط شارع اعتدنا أن نجده من أزحم الشوارع.. يا لها من حـرية.. وسط الشارع ميدان واسع فسيح به نافورة جميلة.. على الفور قفزت إلى مياهها لاهياً لاعباً...

توقفت وهلة ألهث وقطرات الماء تتساقط عن جسدي...

إن هذا الهدوء.. لقاتل فعلاً !!!

علـى الجهة الأخرى محل للأجهزة الكهربائية.. دخلته.. أشعلت أحد التليفزيونات العديدة المعروضة.. لم أجد شيئاً.. بالطـبع لا يوجد مذيعون أو ممثلون أو أي شيء.. قلّبت كل القـنوات.. لا شـيء.. حـتى القـنوات الفضـائية للدول المجـاورة.. لا إرسـال.. أشـعلت جهاز راديو.. جاوبني الصمت.. ثم أخيراً وجدت ضالتي...

الكاسيت...

بالمحل مجموعة متكاملة من الشرائط.. أغانٍ.. مواعظ.. خُطب...

كالمجنون وضعت شريطاً داخل كل جهاز كاسيت...

أوصلت التليفزيونات بأجهزة الفيديو...

كانــت هــناك شرائط أفلام ومسرحيات ومنوعات.. كل شيء...

أشــعلت الأجهزة كلها معاً.. جعلت مؤشر الصوت على الحد الأقصى...

الأصــوات حولــي صــاخبة عالــية أصابتني بما يشبه الصمم...

أخذت أتلوّى وأتراقص.. وحدي.. على إيقاع ليس هناك مــا يــربطه بسيمفونية الفوضى التي ألّفتها وأعزفها الآن.. جعلت أقفز.. أقفز.. هيه.. هيه.. هيييه...

بدأت أشعر بالملل.. بالقهر.. بالاكتئاب...

جلست أرضاً القرفصاء.. صدري يعلو ويهبط...

الأصوات من حولي كأنها الزلازل والبراكين...

بدأت أبكي.. أجل.. أبكي...

بكل ما أوتيتُ من قوة.. أبكي.. أبكــي...

خرجت من المحل.. بحثت عن سيارتي.. ركبتها متوجهاً إلى المقابر...

أخــذت جاروفــاً وفأســاً.. وفــي إصرار عجيب بدأت أحفر...

أريد أن أرى جثة إنسان آخر..

شــيء يــدل علــى أن إنسانًا غيري كان موجوداً هنا.. ومات...

نبشتُ قبراً...

فالتالي...

فالثالث...

لا أثر..

لا أثر لأي أحد..

هذا رائع للغاية..

في هدوء.. رقدت مكان ما نبشت..

وأهلت عليّ التراب !!!

الغيـــربشـــريـــــون

«كوننا خُلقنا من طين لا يعني بالتبعية أن تكون أخلاقنا كذلك ...

ولكنه يحدث ...

ولئن كان صانع شيء لا يتقاضى ثمناً للصنع ...

فلا بد للبائع أن يدرك أن هذا الشيء لا ثمن له ...

ولكنه يحدث ... »

تمهيد لا لزوم له:

بعـــد أن تعهـــد بإرســـاء الحق.. على من ليس له حق.. وضاعف ما يتخذه لنفسه كحق...

والاســـم سمســـرة.. أو هديـــة على المسخرة.. أو لزوم متطلبات المنظرة...

أغلـــق الســـمّاعة.. ثم نظر إلى الساعة.. وتناول الجاكت من فوق الشمّاعة...

وأدرك أن الموضـــوع بـــه تأخيرةِ.. فنظر للمرآة نظرة أخيرة.. ولزوجته التي يعاملها كما الأجيرة...

هـــي تعلم أين سيذهب ومن سيقابل.. ولكن ماذا تفعل في المقابل...؟!

فطفلها الرضيع على صدرها.. هو المتحكم في أمرها...

ولولاه ما رضيت بالعيش معه في منزل واحد...

هي تبيع الحرية من أجل سلام راكد...

ولأنه لا يجتمع الاثنان... فقدت حريتها والأمان..!!

القصة الكاملة بعناصرها من البشر:

بأنفـــاس لاهثة.. صدر يعلو ويهبط.. عرق غزير تنزفه جبهـــته.. قابل فتاة هذه الليلة.. نظر إليها نظرة العالم بخبايا جســـد المرأة.. قاس في لحظات ما يمكن لهذا الجسد منحه مـــن لـــذة.. تلك الشفاه الممتلئة.. ذلك الصدر الناهد.. تلك البشرة اللامعة.. الشعر.. الـــــ...

وصــــل أخيراً.. نظر لساعته.. غمغم معتذراً في ابتسامة فجة.. أخبرته أنه تأخر نصف ساعة وعليه أن يدفع ثمنها.. هـــذا ســـعرها ولـــيس ذنبها أنه تأخر في وقت كان يمكنها العمـــل فيه.. اختلفا فاتفقا.. واعتذر عن عدم وجود سيارته التـــي يصلحها الميكانيكي.. مدّت سبابة بظفر طويل حاد.. خمشـــت جانـــب وجهـــه ثم داعبت مؤخرة رأسه.. استكان للمســـاتها المُدرّبة.. واستكانت هي للسعر الذي سيدفعه لها.. مـــدّ يده ليضعها في جانبها دلالة الإمتلاك وإمساكه الزمام.. بيـــنما عطـــرها الفوّاح قد أرسله إلى أرض أخرى الطاعة رمزها الوحيد.

عـــيونه ملؤهـــا الرغـــبة.. أنفاسه متلاحقة.. على وجهه ابتســـامة عريضـــة كأنها الرضا.. بإصبع واحد.. أشار إلى أول تاكسي شاغر.

• الســـائق رجل في عقده الرابع.. شاربه كثّ عريض.. ابتســـامة العـــالِم ببواطن الأمور على وجهه.. عيونه لامعة تحسبها للذئب لدى رؤيتها.. غمز بها للرجل وكأنه يقول له إنني أعرف.. ولكن لكل شيء ثمنه.. حتى التوصيلة.!

• فـــي الطريق إلى الشقة حيث سيقضيان السهرة.. توقف التاكســـي فـــي إشـــارة مرور مزدحمة.. مرّ بهم بائع فلّ.. ابتســـم بفجاجـــة ومدّ رأسه داخل التاكسي مصحوبة بالكثير مـــن أطواق الفل والياسمين.. في لهجة أقرب للسخرية قال: (ــ ربـــنا يخلّـــي لـــك.. الهـــانـــم..) ضاغطاً على الكلمة الأخـــيرة.. مـــنعاً للإحـــراج.. وتدخل الأفجاج.. منحه ما طلب.. فهو يعلم أنه يعلم كنه هذه الفتاة.. وهذا السائق.. بل وكنهه هو شخصيًّا.

• أمـــام العمـــارة المطلوبة.. حملق البوّاب في السيّارة.. تعـــرّف علـــيه.. وأدرك مـــا سيحدث.. لذا فإنه فزّ قائماً.. وهـــرول يفـــتح بـــاب التاكســـي للهانم والبك.. الذين لا بد سيقضـــيان وقـــتاً لذيذاً في شقّة صديقه بالأعلى.. وبعد أن حاســـب الرجل السائق حسابه المُضاعف.. قوبل بيد البوّاب الممدودة.. فرضخ.. في هدوء.

• أما عامل المصعد.. الفتى الصغير.. فقد ترك المصعد مفتوحاً.. وذهب لاستقبالهما في موكب احتفاليّ قام به مشاركاً البوّاب.. وبالطبع حصل على نصيبه في الصفقة.

• أخيراً..

رنّ الجرس.. وهو يكاد يلتهم الفتاة بيديه وفمه وعينيه.. هي أخرجت من حقيبتها مرآة.. بدأت تضع اللمسات الأخيرة في مكياجها.. تتأوه في صوت خفيض.. تلعق شفتيها في إغراء.. هو يكاد يشتعل.. يرن الجرس ثانية..

يفتح صديقه الباب..

بعد الأحضان والسلامات وكل ما يتطلّبه الموقف..

يرشد الصديق الفتاة إلى غرفة النوم حيث ستنتظر.. وتستعد.. وتغيّر ـ أو تخلع ـ ملابسها.. بينما الصديق يهمّ بترك الشقة له.. إذا به يمد يده ليقبض المعلوم.. في تأفف يتخلّص منه بتنفيذ أوامره.. لا يهم إن كان الصديق يمر بضائقة مالية أم لا.. المهم أن ينصرف.. لينعم مع الفتاة بوقته الممتع.

وصفق الباب خلف صديقه في عنف.

الرغـــبة تـــنهش جسده.. تمزقه تمزيقاً.. مستعد أن يدفع عمـــره كله لو طُلب منه ذلك من أجل أن ينال الفتاة العارية بـــالداخل.. ذلـــك الجسد البريّ الوحشي.. الأفخاذ الناعمة.. الثديان المتصلّبان... الــــــــــ...

القصة الكاملة بعناصرها من غير البشر:

• توقـــف التاكســـي بناءً على أوامر سائقه فنظر لراكبيه الجُـــدد وتـــأفّف.. سائلاً رب العباد أن يتوب عليه من (تلك الشغلانة التي أصبحت تلم اللي يسوى وما يسواش).. ولولا أن (الرزق يحب الخِفيّة) لما قامت له قائمة.

• زفـــر الفل والياسمين في قرف متخيّلَيْن نفسَيْهما معلّقَيْن علـــى جـــيد فـــتاة كتلك.. استنكر الفل الفكرة.. بينما وافق الياســـمين علـــي مضـــض... بالرغم من أن رائحة الفساد عطّت على رائحتَيْهما مجتمعَيْن.

• أمّـــا الـــباب.. الذي فتحه البوّاب.. فقد أعلن اعتراضه علـــى شكل صرير مزعج.. وترحّم على إرادته التي ذهبت وولّت منذ أمد بعيد.

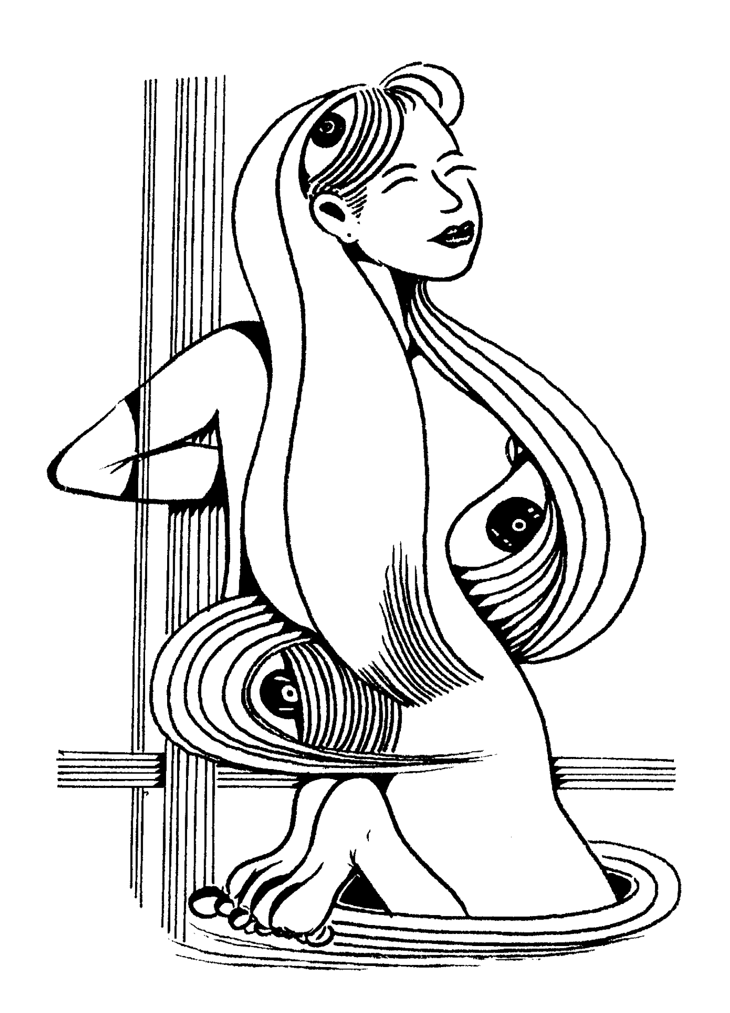
• والمصـــعد كذلك.. تأخر في الصعود.. وواتته فكرة أن

يـــتعطّل فـــي منتصف الطريق إلا أنه وأد ذلك الخاطر في مهده لخطورته على صحة الفتى عامل المصعد الذي عاش معه أيامًا جميلة من قبل.. وينظفه دومًا ويرعاه.

* بخصـــوص جرس الباب.. فقد أخذ يصرخ.. يا ناس.. يـــا هـــوووه.. الحقـــوا... امنعوا الصفقة القذرة.. هذا البيع باطل.. وتلك العلاقة نجس.. السعر شيء بخس.. ولكن هل هناك أحد يحس؟!!

في غرفة النوم :

- كانـــت الفتاة راقدة على السرير.. عارية لا تسترها ســـوى مـــلاءة كشفت أكثر ممّا غطت.. هو لم يَعُدْ يحـــتمل أكـــثر مـــن ذلـــك.. أشارت لـــه بأن يدفع النصف الآن.. ويضعه في حقيبة يدها قبل أن يلحق بها.. فعل..



• حملقــت المرآة فيما ترى غير مصدّقة.. بينما همست التســريحة لمقعدها القصير أن هذا لا يجوز ثانية.. أضواء الغــرفة أعلنت الغضب خاصة عندما خُفّتت لتناسب الظرف الحالـــي.. بـــرز صوت الكومودينو معلناً العصيان.. ملاءة السرير صرخت.. إذ إنها كانت أكثر الأشياء تضرّراً كونها ملامسةً للفعل الشنيع..

• بدأ يخلع ملابسه.. بينما هي تتأوّه في مجون..

• صـــرخات قادمة من الثلاجة وحوض المطبخ والفوتيه متسائلةً عما يحدث بالداخل..

• صار عارياً إلا من قطعة واحدة من ملابسه الداخلية.. بيـــنما هـــي بدأت تقلّص ساقيها.. كي ينحسر عنها ما يستر بعضاً منها..

• طَـــرَقات خافتة من كل الأدوات المنزلية داخل الأدراج والدواليـــب.. وحفـــيف الملابس صار مسموعاً في وضوح تامّ..

• اســـتوى علـــى السرير نائماً.. همّ بتقبيلـــها.. بينما نار الرغـــبة تحرقه.. وهي تؤدي دورها في احتراف تام لتبقيه

متأججاً..

- (تحتج) المَرتبة الإسفنجية في اهتزازة..
- (تهتز) المَرتبة تحت وطأة حركتهما..
- تشـــدّد الملاءة من تغطية الفتاة.. ترفس الفتاة الملاءة.. يصـــعد هـــو فـــوق الفتاة.. تنفضه المخدّة.. يلقيها أرضاً.. تنقلـــب الأباچورة فوق السرير.. لا يلتفتان إليها.. يتأوّهان.. يتـــبادلان القـــبلات المحرّمة.. تضاء الأنوار كلـــها دفعة واحـــدة.. تســـطع كشمس في منتصف الليل.. السخونة تمتد عـــبر جسديهما فينهمر العرق غزيراً.. يتأرجح الكومودينو والـــدولاب والتســـريحة والمقاعد والأباچورات.. يتأرجحان بيـــن أمواج الشهوة.. أصوات أثاث الشقة تعلو وهي تبدأ في الـــتحرك مـــتجهة إلـــى غرفة النوم.. الفعل المحرّم يدخل منحنـــياته الجـــادة.. ينفتح الباب.. يلتفتان للمرّة الأولى ليريا مَـــن يقـــتحم عليهما الخلوة.. يفاجئهما تجمّع الأثاث وأدوات وأجهـــزة المـــنزل.. تصـــرخ الفتاة في رعب.. يهمّ الرجل بالقفز من السرير.. تتعلّق الملاءة بقدمه.. تعرقلـــه.. يسقط علـــى الســـرير.. تلطمهمـــا المَرتبة فيقفزان عالياً ويسقطان علـــيها مـــرّة أخـــرى.. يتلقـــيّان لكمات متتالية من مخدّات

الســرير والبطّانيات المكوّرة والأحذية والشباشب التي كانت تحــت الســرير.. يغطــيان وجهيهما اتقاءً للضربات التي صــارت أكــثر حــدّة.. بعــد انضمام بعض القطع الصلبة كالكراســي وأدراج الكومودينــو.. تصاعد صوت المعركة التــي شــارك فيها الجميع عازفاً سيمفونية من خبط وطرق ورقع وشخشخة..

مُضرَّجَيْن في دمائهما..

سقطا صريعين..

فأحكمت الملاءة عليهما الغطاء !!!

فهرس

من إصدارات الدار

1 ـ تحت سحر مصر (مقالات)

د. مرسي سعد الدين

2 ـ رجال النبيلة الأولى (رواية)

سوسن بشير

3 ـ الإنترنت في مصر والعالم العربي (دراسة علمية ورؤية مستقبلية)

د. رشا عبد الله

4 ـ حكايات البيت المسكون (قصص)

حسن إبراهيم


دار القبس
للطباعة وفصل الألوان
ت : ٠٨٣٥-٣٦٤٠ - ٣٦٨٥٦٢٨ - ٥٢٤٣٣١٤